

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

إسماعيل كاداريه

شاعراً - روائياً من ألبانيا

تأملات في أعماله المترجمة إلى العربيّة

عبد اللطيف الأرناؤوط

أعلام الأدب العالمي ٣

إسماعيل كاداريه
شاعراً - روائياً من ألبانيا

تصميم الغلاف

فراس نعوف

عبد اللطيف الأرناؤوط



إسماعيل كاداريه

Ismail Kadare

شاعراً - روائياً من ألبانيا

تأملات في أعماله المترجمة إلى العربيّة

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة — دمشق ٢٠١١م

إسماعيل كاداريه : شاعراً - روائياً من ألبانيا: تأملات في أعماله المترجمة إلى العربية / عبد اللطيف الأرناؤوط . - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١م . - ١٣٦ ص؛ ٢٤سم.

(أعلام الأدب العالمي؛ ٣)

١ - ٨٩١,٩ أ ر ن إ ٢ - العنوان ٣ - الأرناؤوط
٤ - السلسلة

مكتبة الأسد

أعلام الأدب العالمي

«٣»

شعاع على الكاتب

إسماعيل كاداريه

مما لا شك فيه أن الكاتب الألباني (إسماعيل كاداريه) Ismail Kadare كان وجه ألبانيا الذي رآه العالم خلاله.

فلولاه لم يكن لألبانيا هذا الحضور الماثل في ذاكرة القراء، لقد كانت ألبانيا قبله رقعة أرض على الخريطة، وأصبحت بعده روحاً ونبضاً عالمياً. يعلي قيم الإنسان، ويعكس تطلّع الشعب الألباني إلى العدل والحرية والحياة الكريمة الآمنة.

بفضله عرف العالم روح الشعب الألباني وتراثه وقيمه وأساطيره التي تجسّدُ عاداته وتقاليده ومُثله، ومن هذا المنطلق يجب أن نحكم عليه بعيداً من تصرفاته الإنسانية في مواقف الحياة.

ولد إسماعيل كاداريه في مدينة (جيروكاسترا Gjiro Kastra) بجنوب ألبانيا عام ١٩٣٦م، والتحق بعد دراسته الثانوية بكلية الآداب في جامعة" تيرانا"، وتخرج فيها عام ١٩٥٨م، وحصل على منحة دراسية لمتابعة دراسته في معهد "غوركي" للآدب العالمي، فاطلع على الثقافة الغربية، وبرز اهتمامه بالشعر منذ أن كان في الحادية والعشرين من

عمره، وتطلع إلى التغيير، فكان باكورة نتاجه الأدبي روايته الأولى بعنوان (مدينة بلا إعلانات) التي وضع مسودتها في "موسكو" وحاول نشرها بعد عودته إلى وطنه لكن الرقابة منعت نشر حلقاتها في ظل الحكم الشيوعي ..

في هذه القصة الطويلة يبدو "كاداريه" شـــاباً طامحاً ومتحمساً للتغيير الثوري العنيف الذي رأى فيه النظام إحراجاً له، فبطلاها شابان تتجاوز حماستهما للتغيير الثوري المواقف المعلنة للحزب الشيوعي آنذاك، فهما يرفضان الدين، ويسعيان لتخريب الأيقونات في الكنائس وتمزيق الكتب المقدسة، ومنع نشر القصة أو الرواية بسبب ما تمثله من إحراج للحزب آنذاك.

في الوقت الذي كانت ألبانيا فيه تخوض معركة مع التحريفية السوفياتية، وبعد ثلاثين عاماً .. حاول " كاداريه" أن يعيد نشرها في الغرب عام ٢٠٠١م، وبعيداً عن قيمتها الفنية، فقد احتفى الغرب بنشرها كعمل أدبي لم يسمح الحزب الشيوعي نشرها.

ثم تحرر"كاداريه" من الأفكار المتطرفة بعد هذه الرواية، كما تحرر من صبغة الأدب التحريفي المباشر، وأفاد من تجربته الأولى في إعداد نفسه لتأليف روائي له قالبه الغني يستلهم روح الشعب الألباني وتطلعاته ضمن إطار الواقعية الاشتراكية .

فبدا في روايته التي حققت له شهرة عالمية بعنوان(جنرال الجيش الميت - Gjenerali I Ushtrise Sevekur) عام ١٩٦٣م أكثر التزاماً بالأسلوب الفني لكتابة الرواية، وأشد التصاقاً بحياة شعبه الواقعية.

تتحدث الرواية عن جنرال إيطالي بعثته حكومته بعد طردها من ألبانيا، برفقة كاهن للبحث عن رفات الجنود الإيطاليين الذين قتلوا في ألبانيا في معارك التحرير، ومع عدم اقتناعه بجدوى مهمته، فقد لاقى مصيره المحتوم، فقتل على يد عجوز ألبانية مناضلة ثاراً لولدها.

هذه الرواية فتحت له أبواب الشهرة العالمية، وتُرجمت إلى لغات عدة، وأتاحت للعالم أن يطلع على صورة ألبانيا وبطولات شعبها وأعرافه وتقاليده، ونأى فيها "كاداريه" عن المباشرة، ومنحها نفساً شاعرياً فيه من الحرارة والصدق ما يبعدها من الدعاوة.

بعد هذا النجاح، نشـــر "كاداريه" رواية قصيرة وعنوانها: (الوحش Shkaba) استفاد فيها من واقعة حصان طروادة أمام أبواب إيليون المقدسة، محاولاً إسقاط الماضي الأسطوري على حاضر بلده في معركة التحرر التي يخوضها، ومع أن "كاداريه" اتخذلروايته إطاراً من الأساطير العالمية، وأسقط فيها الماضي على الحاضر، فقد آثر بعد ذلك أن ينعطف إلى أساطير بلده ألبانيا وإحيائها في التعبير عن تطلعاته الوطنية، وهي أساطير تعكس روح شعبه وتشدّه إلى متابعة تطلعاته الإنسانية.

ومن هنا انطلق "إسماعيل كاداريه" في رواياته اللاحقة إلى إحياء تراث ألبانيا الأسطوري والإفادة منه في إسقاط ما يريد إسقاطه من أفكار تحررية لبعث العزيمة في نفوس الألبان، الذين تهزّهم هذه الأساطير، ويرون فيها حكمة الماضي لبناء الحاضر، وفي عام ١٩٦٨م أصدر "كاداريه" روايته (العرس Dasma) واختار إطاراً اجتماعياً يهاجم الإقطاعيين والمتنفذين، ويحضّ على تصفيتهم وإنهاء تسلطهم ومظالمهم، وبدا فيها الكاتب ملتزماً أفكار الحزب في تحليله الماتع لصراع الطبقات.

وفي عام ١٩٧٠ أصدر "كاداريه" رواية (الحصن Keshtjella) تناول فيها بطولة الشعب الألباني في الدفاع عن حصن حاصره العثمانيون في القرن الخامس عشر، لكن الرواية خضعت لتأويلات شتى لأنها تسمح بأكثر من إسقاط سياسي، فقد صدرت بعد النزاع الإيديولوجي الألباني السوفيتي، واجتياح السوفييت لتشيكوسلوفاكيا عالم ١٩٦٨م وفهمها الغرب على أن الرواية تمثل ألبانيا التي تقاوم التحريفية السوفيتية، وأن المواجهة لم تكن بين العثمانيـــين والألبان ويعود" إسماعيل كاداريه" بعد ذلك إلى الأساطير الألبانية يسقطها على حاضر وطنه، وقد وجد فيها سبيلاً لكتابة الرواية الفنية بمفهومها المعاصر، وإطاراً لا يقبل التحريف والتأويل، كما لمس فيها استجابة الشعب الألباني لإعادة قراءة هذه الأساطير التي ترسّخت في وجدانه، فأصدر في عام ١٩٧١م رواية وعنوانها: (تاريخ منقوش على الحجر Kronike Ne Gur) تحدّث فيها عن نضال مدينة "جيروكاسترا" خلال الحرب العالمية الثانية، ومقاومتها القوات اليونانية والإيطالية والألمانية بقيادة الحزب الشيوعي، وخلال سيرة بطلها الشاب الذي جمع بين حلمه والواقع، حتى يتم التحرير من طفولته ويفاعته في هذه المدينة التي ينتمي إليها.

وفي عام ١٩٧٣م حاول "كاداريه" أن يبرز الموضوع ذاته في رواية بعنوان: (خريف مدينة Nentori Inje Kryaqyteti) عرض فيها تحرير مدينة "تيرانا" من قوات الاحتلال الألماني، وتماثل موضوعها ونهجها مع روايته السابقة من الاهتمام بها.

ولم تنل روايته اللاحقة وعنوانها: (الشتاء الكبير Dimri I Madhe) التي تناول فيها الخلاف الألباني السوفيتي في عام ١٩٦١م، وانضمام

ألبانيا إلى المعسكر الصيني الماوي معتمداً على محاضر الاجتماعات بين الوفدين الألباني والسوفيتي ومذكرات (أنور خوجا Enver Hoxha) لطبيعتها السياسية، وطغيان الفكر السياسي على محتواها، وضعف بنيتها الفنية.

ويعيد "كاداريه" في رواية (فجر آلهة السهوب) ذكرياته في "موسكو" يوم كان طالباً، يتناول فيها قصة حب بطلها الألباني لفتاة روسية مُسبغاً على هذه العلاقة بُعداً إنسانياً واجتماعياً.

ويعود الكاتب بعد ذلك إلى التاريخ، ويحتفي بكل ما هو ألباني يقدمه كتراث لبلاده، ويرى فيه الأسلوب الأمثل للتعبيرعن قيمه وأفكاره.. فنشر في عام ١٩٧٨م رواية عنوانها: (جسر بثلاث قناطر Ura Metri Harqe) استلهم فيها حكاية شعبية ألبانية تعكس معتقداً شعبياً يفرض ضرورة التضحية برأس إنسان أو حيوان يوضع في أساس البناء ليضمن له الاستمرار والخلود، ويدعو شعبه لتقديم التضحيات لبناء مستقبل راسخ.

وأصدر "كاداريه" في عام١٩٧٨م رواية عنوانها: (الباشويات الكبرى Pashalleqet E Madha) سلّط فيها الضوء على شخصية "علي باشا" الذي حاول أن يستقلّ عن السلطة العثمانية مستعيناً بالغرب، لكن العثمانيين دبروا له مؤامرة قطعوا فيها رأسه وأرسلوه إلى الباب العالي.

وفي عام ١٩٧٩م، أصدر "كاداريه" رواية عنوانها: (لجنة الاحتفال Komisioni I Festes) تناول فيها واقعة تاريخية معروفة في التاريخ الألباني، إذ عمدت السلطة العثمانية إلى تدبير مؤامرة هدفت إلى تصفية خمسمئة عنصر من أعيان الألبان ذوي النزعة التحريرية بدعوتهم إلى

احتفال في مدينة (مناستير Manestir) وقضت عليهم، وندّد الكاتب بالروح التآمرية والدموية للحكم العثماني.

ويعود كاداريه" إلى الرمز والأسطورة الألبانية ينُطقها ويسقط خلالها تطلعاته في رواية عنوانها:

(مَنْ أعاد دورنتين Kush E Solli Doruntinen) عام ١٩٧٩م وتعتمد الرواية على أسطورة ألبانية شعبية متداولة، يبعث فيها الأخ حياً من موته ليدافع عن أخته المختطفة، إذ يغدو بعث الأخ بعثاً للشعب الألباني المستسلم لمصيره كالموتى، ونالت الرواية شهرة لما فيها من فرص متعددة لقراءة رموزها الأسطورية .

وفي رواية عنوانها (موظف قصر الأحلام Nepunesi I Pallati I endrrave) التي صدرت عام ١٩٨١م، يعود الكاتب إلى التاريخ العثماني يستلهم منه أبرز الحوادث، ويسقط خلالها نقداً للنظام الاستبدادي فيرصد كل حلم قد يتحول إلى واقع يهدده، فيجهضه قبل أن يجدسبيله إلى التحقيق.

وأصدر "إسماعيل كاداريه" مجموعات قصص طويلة أو روايات قصيرة .. أهمها :

- برودة الأعصاب ١٩٨٠م Gjak Ftoftesia

- نيسان المكسور Prilli I Thyer تناول فيها تقاليد الثأر لدى الألبان.

وبنعطف "كاداريه" نحو الرواية الإيديولوجية .. فيصدر رواية عنوانها: (حفلة موسيقية في نهاية الشتاء Koncert Me Fund Te Dimrit) تناول فيها وجهة نظر الحزب من الخلاف المتفاقم بين ألبانيا والصين.

وكذلك رواية (الملف هــ Dosja H) انتقد فيها فترة حكم الملك "أحمد زوغو" بالسخرية خلال متابعة بطليها الباحثين الغربيــين اللذين يزوران ألبانيا للإطلاع على تراثها الشعبي، لكنهما يخضعان لمراقبة السلطات ومضايقتها، مما يعكس عزل ألبانيا عن العالم وتقوقعها بعيداً عن الانفتاح والتواصل.

وفي عام ١٩٩٠ غادر"اسماعل كاداريه" بلده ألبانيا إلى باريس. ونشر رواية عنوانها: (الهرَم Piramida) عام١٩٩٢م جسّد فيها القطيعة التي تمت بينه وبين الحزب الشيوعي، واستعار واقعة رفض الفرعون المصري" كيوبس" دفنه في هرم كأسلافه،ليرمز خلالها إلى رغبة"أنور خوجا" زعيم ألبانيا الشيوعي، أن يدفن في هرم ضخم في قلب العاصمة "تيرانا"، وساعد على انتشار الرواية المفارقة بالمطالبة بنقل رفات "خوجا" من هذا المبنى وتحويله إلى مركز للموسيقا الغربية التي لم يكن "خوجا" يجب سماعها في حياته.

وأصدر "كادرايه" في عام ٢٠٠٣م رواية عنوانها :

(الظل Hie) تناول فيها الصراع الصامت على السلطة بعد وفاة "خوجا" و أنه كتبها سراً في فترة حكمه، وسرّبها إلى دار نشر فرنسية، وفيها يصور عزل ألبانيا في ظل حكم "أنور خوجا" في سنواته الأخيرة، ويعقد مقارنات بين واقع ألبانيا في القرون الوسطى والتقدم الذي شهده العالم الغربي، وكأنه يقطع كل صلة له بالنظام الاشتراكي خلال صورة البطل الذي يمثله، ويظهر نفسه وكأنه ضحية للنظام الاشتراكي.

وإننا نلاحظ خلال قصصه وروياياته أن الغرب الذي عزّز شهرة "إسماعيل كاداريه " كان يتابع نتاجه باهتمام وينقل إبداعه المنسجم مع مصلحته، لكن هذه الشهرة الواسعة لم تأت من فراغ، فقد كان الغرب يعلم بتميزه الإبداعي وموهبته الروائية المتميزة فنياً، وهو يعرف أن ما يقدمه للقراء بأنه ينقل إبداعاً متميزاً جديراً بالقراءة، ويسلط الضوء على الأدب الشعبي الغني بتراثه الأسطوري، ويُسقطه على الواقع، ويعنى بالشعر الشعبي الذي يدوّن سيرة شعب بأصالة، وينقلها إلى العالم بإبداع، ويسعى إلى تحديثها وتخليصها من عناصر الميثولوجية ويسقطها على الواقع المعاصر ..

ومن هذا المنطلق يجب أن نحكم على عظمة أدب "إسماعيل كاداريه" بعيداً من مواقفه السياسية وتحولاته، فالسياسة تتبدل والإنسان يتغيّر.. فقد أهدى "كاداريه" العالم صورة ألبانيا التي ستظل تقترن به، فهو ابنها وهي أمه ومن ثديها رضع وأعطى.

* * *

إسماعيل كاداريه .. شاعراً

يحاول الشاعر الألباني إسماعيل كاداريه أن يرسم في قصائده ملامح شعب في كفاحه المستميت لطلب الحرية والتقدم عبر تاريخ ألبانيا الحافل بالبطولات ومن خلال أشعاره ينفذ إلى القلوب، ويمتزج بأنفاس أبناء شعبه الذي يتمتع بصلابة مواقفه الوطنية، دون أن يهبط بشعره الوطني إلى مستوى الدعاية أو الابتذال، واستطاع الشاعر إسماعيل كاداريه أن يبرهن بوضوح على جدارته في حفز الروح الألبانية وتجسيدها بما يملك من نزعة واقعية، وبراعة فنية، ورهافة حس، مستخدماً الوسائل السحرية المختلفة، والخيال الفني المبدع، حتى يمكن تصنيفه في مصاف كبار الشعراء الوطنيين وشعراء المقاومة أمثال : لوركا - وآراغون - وبول ايلوار.

والشاعر إسماعيل كاداريه متنوع المواهب الأدبية، فقد مارس إلى جانب نظم الشعر كتابة القصة والرواية والمسرحية والدراسات الصحفية والنقدية والبحوث الاجتماعية، وحظيت أعماله باهتمام كبير، وترجم بعضها إلى مختلف اللغات العالمية، وهو في كتاباته الشعرية والنثرية لا يقيم حدوداً صارمة بين الشعر والنثر أو بين الفنون الأدبية المختلفة التي تناولها، فواقعيته مفعمة بنــزعة شاعرية تمزج بين الخيال والواقع، والعاطفة والعقل.

ويتناول إسماعيل كاداريه في شعره الموضوعات الواقعية التي تستجيب لمشاعر الناس العاديين من أبناء شعبه، وتنسجم مع تطلعاته، شعر التاريخ والحرب والاحتلال والمقاومة، فكأنه لا يريد أن يكتب إلا الشعر الذي يتجه إلى الناس البسطاء، فيخاطبهم بغنائية ساحرة، وبكل وضوح وبساطة بلغة يفهمها الجميع، بعيداً عن كل تقليد لشعر النخبة، وكأنه يستعيد غنائية الشعر الألباني القديم وأغاني الفخر بالأمجاد السالفة، ولكي يسترد الشعر هذه الشعبية لا بد له أن يمسّ الاحساس والذاكرة الشعبية، ورموز المقاومة والصمود لدى الشعب الألباني:

ياجنتوس(1) المغلوب

أيها الملك الوحيد

إننا نشق طريقاً جديدة

لن نغلب فيها

وبمرافقتنا

سنهدم كل أقواس النصر الغريبة

وسنرفع مجد وطننا

عالياً، شامخاً كالجبال

* *

(1) جنتوس: أحد الملوك الاليريين القدامى الذين سكنوا ألبانيا قديماً، وقد قاوم الرومان واستسلم.

ويستلهم "كاداريه" روح بطل المقاومة الألباني الشهير "جورج كاستريوت" (اسكندر بك) محاولاً الربط بين ماضي بلاده وحاضرها، ويحث أبناء وطنه على أن يصنعوا من المعدن سيوفاً لذكرى هذا البطل يقاومون بها الغزاة.

وتسكب أول دفعة معدن مصهور

وألبانيا تعطي معدنها الذي يخصها

فولاذاً حياً

ويتحرك في قبورها الباردة

الأبطال

الذين اجتازوا المحن

بسيوف غريبة

وحديد غريب

اجتازوا المحن

فاصنعوا أيها العمال

ذكرى جورج كاستريوت

عند أول وجبة تصهرون

وإن ربط ماضي بلاده بتاريخها الحاضر، لا ينفي تطلع الشاعر إلى مستقبل وطنه الذي ستبنيه زنود أبنائها لتشمخ جبالها بكل زهو حرّة أبيـــة:

بقيت هذه السلاسل الجبلية

خرساء مثل قوافل الخيول

إيه .. يا قافلة الخيل

أيتها السلاسل العالية

أنت تتأملين منذ ساعات

منذ أيام وشهور

هؤلاء الذين يقودونك

في ميدان النضال الكبير

لتلحقي بحضارة العصر

* *

وفي إطار هذه المسيرة يطالعنا الإنسان الألباني وهو ينظر إلى الزمن، واصفرار سلاحه الوحيد يُرغم القرون أن تطأطئ رأسها أمام البندقية المزروعة فوق ظهره وكأنها امتداد لعموده الفقري:

أنت يا جبلي

يا حمالة القرن العشرين

يا جعبة الرصاص

يا ذخيرة القرن العشرين

إن دواليب الحرب

لن تمر فوق جسدك
والاشعاع القاتل
لن يحرق أحلامك
وأسلاك الخنادق الشائكة
لن تمزق معطفك

* *

وتشكل الطبيعة الألبانية إطاراً لشعر (كاداريه) الوطني بأرضها وغيومها وأشجارها حتى لكأنها حليف الإنسان في تنقية سماء بلاده من كل ما علق فيها من أدران :

أيتها الأرض القوية
السمراء الباردة
تستعيدين أنفاسك العميقة في الخريف
فقد دبت فيك الحياة ثانية

* *

جردت الغيوم العاتية من سلاحها
وسيطرت على سرعتها
اقتلع البرق جذور الغيوم
كما اقتلع جذور الأمطار

كي تتخلص السماء

من أعشابها الرديئة

ولا يبق فوق رؤوسنا

سوى الزرقة الهادئة

*　　*

ويتعرف الشاعر " كاداريه" هوية وطنه من أشجار الزيتون التي نقُلت إلى فيتنام، وزُرعت فيها، فيرى فيها رمزاً للمقاومة التي تربط بين الشعبين الألباني والفيتنامي.. يقول:

سوف تبقى أشجار زيتوننا

وسط أدغالكم

تــتحمل

القنابل المحرقة، النابالم

وإن أُصيب

تبقى مشطورة الجسد

تظل ملامح أبدية لصداقتنا

*　　*

وتمتد نــزعة الشاعر الإنسانية إلى افريقيا.. فيردد:

بصدرها الأسود

انبرت افريقيا خارج الليل

من تحت عواصف الرمل المحروق

من تحت مطر الكاوتشوك والدم

والعواصف المدارية

من تحت لعنة الصحارى المدارية

انبرت افريقيا منطلقة كالمارد

* *

افريقيـــا

ذات الشعر الأجعد

زنوجك مزقوا جلد الظلام

إلى ألف قطعة سوداء

تقاسموها

وارتدوها

ثم كروا سراعاً إلى وطأة الهمّ

* *

أما أعداء الشعوب، فيطيب للشاعر "كاداريه" أن يشبههم بحصان طروادة، ويستغل هذه الأسطورة اليونانية، ليرمز بها إلى زحف الإمبريالية الغربية نحو المدن العصرية، لكنه حصان عصري يتدرع

بالمحطات الإذاعية، وقضبان الهوائيات، إنه يحطم المدن الآمنة، مثلما هَوَت طروادة من قبل تحت وقع حوافره، فيخاطبه قائلاً :

لقد طاب لك لحم المدن

أيها الشيطان

تخبُّ مسرعاً كالسيل الأبيض

كالقمر

وعيناك من خشب أجوف

وتجولان في كل صوب

وتلوب أبداً

في نهم أبدي

وبطنك الخشبي

لايعرف الشبع

* *

حذار، فأنت تجهل أننا نعرفك

فلا تحسب أنك تأخذنا على حين غرة

في زمان مبكر

حذار .. حذار

فأنت تسعى إلى موتك

* *

ويصور" كاداريه" العالم الرأسمالي بلوحة فنية موجزة لكنها بالغة التعبير من خلال وصفه لمدينة نيويورك :

ناطحات سحاب عملاقة

تتمايل على أرجلها

يترنح أحدهم بكأس من المشروب

للدعاية

ويلوك الآخر علكة

ويحمل الثالث بين أنيابه

عنوان كتاب مآساوي

واسم مؤلف

* *

في الأعالي زواحف للأعلام

تــــتقاتل في عراك دائم

وفي الغابة التي طُمست آثارها

تحت الإسفلت

في مدينة الترف الرهيـــبة

تنــــتقم الأفاعي

* *

وتكتمل صورة الغرب عند الشاعر هذه اللوحة المقلوبة، فيشير إلى فضل الفئات العاملة على حضارة الغرب .. يقول:

مساء الخير أيها الغرب

كل شيء فيك مضيء

لوحات الإعلانات في الأسفل

وفي الأعالي دخان المعامل الأسود

* *

الشعر عند" إسماعيل كاداريه" تعبير مباشر وشخصي عن عواطفه الذاتية، لكنه ليس نقلاً للواقع، وإنما هو أمنية يستحيل به الواقع إلى لون من التماهي الذي يستند إلى قوة الخيال، وروعة الإيحاء، إنه ينبعث من أعماق إسطورية، ويتكئ على فتنة الفن، إذ لا بد للشاعر من أن يلجأ إلى مثل هذا الحذق الذي لا ينضب، ولو كان في ذلك تعارض مع المباشرة، والصدق، والواقعية، فالهوة تتسع في شعر "كاداريه" ومسافة الإبداع تكبر بين ما يطمح إليه الشاعر من واقعية حسية، وما يبلغ إليه شعره من ألوان بلاغية كالإحياء والتشخيص واستنطاق التاريخ والأساطير، والعاطفة الرومانسية المشبوبة، يقول بلسان " الهوائي" وكأنه يعبر عن ذاته:

العالم .. جميل هادئ

وأراني في الكون

مثل رمح طويل أبيض

يبرق فوقه الندى والدموع

ولا أعرف لماذا أخفي

في بعض الأحيان

دموع بكائي المكتوم

أظل هكذا

شتاءاً وصيفاً

أنا الرمح المركوز عالياً نحو السماء

ألاحظ أول ما ألاحظ

قدوم اللقلق

وأرسل التحية للغيوم العابرة

وأتأمل غروب الشمس المجنحة بالذهب

* *

ولعل ما يميز شعر" كاداريه" المقاطع الشعرية التي تتعلق باللوحات الوصفية، إذ يبدو الشاعر أكثر استجابة لمشاعره الذاتية، وتبدو لوحاته تعبيراً صادقاً عن ذاته، وهي سمة نلحظها في قصصه ورواياته ..

وحسبنا أن نقرأ قصيدته في" القاطرة" التي هرمت وشاخت وكأنها الشاعر نفسه بعد عمر طويل من العطاء وتقديم الخدمات للناس قبل أن ترتحل إلى الفناء :

قريباً ينهلّ المطر على الشاطئ

وتغلق المسابح

ويغيب اللازورد

وتتطاير الأوراق الميتة

على السكك لحديدية

تسقط بــبطء على ظهرك

وتــتوقفين عن الحركة

تقفين وحيدة على شاطئ البحر

ويلسع الندى والمطر جسدك

فتسكبين دموعاً حرّى

على شيخوختك السوداء

*   *

وتظل رومانسية "كاداريه" هادفة، ذات بُعد إنساني، بعيدة عن الميوعة العاطفية والترهل الوجداني الذي كان يكرهه، لأنه عمل على تحطيم ذلك الشعر الذي يضعف روح المناضل الألباني :

ما من شاعر فيك بعد اليوم

ينسج لك أميالاً من التنهدات

تنهدات من الخردة التافهة

*   *

مامن شاعر فيك

يجرر أذياله في علب الليل

والمواخير

ويغرق في نظم قصائد الحب العذري

في المواخير مع المومسات

*   *

إن الشاعر إسماعيل كاداريه يتطلع إلى شعر جديد يراه في عيون أبناء شعبه وهم يشيدون دعائم وطنه الجديدة مستلهماً الآفاق الإنسانية والاجتماعية والنضالية، وقد اندمجت ذاته بذات أمته في عالم من الحب لوطنه، يسبح في سماء متألقة تنتشر فوقه عالم حافل بالينابيع المترقرقة والطيور المغردة، وصور العالم المحسوس، دون أن يقطع علاقته بالماضي، أو يتوقف عند عتبة الحاضر، بل ليطل على مستقبل مشرق لوطنه يحلم به، وكأنه يوثوبيا موعودة في لون من الواقع والخيال، ويأخذ بمجامع القلوب ويستأثر بها.

*   *   *

الواقعية في شعر كاداريه

مما لاشك فيه أن عودة ظهور الواقعية التي مثلها "بلزاك وزولا" بثوب جديد، أطلق عليه الواقعية الجديدة، مردّها إلى تراث تاريخي نقدي ينحدر من الكلاسيكية أو محاكاة الطبيعة كما سماه أرسطو: فالفن لا يمكن أن يتعامل إلا مع الواقع، وقد هدفت كل الفنون إلى تصوير الواقع حتى لو تكلمت كما يقول "وليم بليك" عن واقع أرقى من الأحلام والرموز.

والشاعر الألباني اسماعيل كاداريه تبنّى في نتاجه الشعري ورواياته الاتجاه الواقعي الجديد أي الوصف الموضوعي للواقع الاجتماعي المعاصر، وبخاصة حين يركز على الوسائل والاهتمامات النابعة من حياة الشعب الألباني، لكن واقعية كاداريه ليست واقعية نقل أو محاكاة حرفية لما حوله، بل هي واقعية توجيهية ترفض الواقع القائم، ونظام المجتمع الموروث، وتعرّي حقيقته لبناء مجتمع جديد، فهو لا يصف المجتمع كما هو إلا لينتقل إلى صورته كما يجب أن تكون أو كما ستكون مستعيناً بالدعوة إلى أفكاره.

يا أبناء جيلي

ياجيل السرعة

إنك تملك طاقة عظيمة

تعيد كل قديم جديداً

لأن القوافي المشطوبة

والأشعار الممسوحة

تبدو كأنها أعمدة عملاقة

أمام بناء جديد

* *

والشاعر كاداريه شديد الاحتفاء بالواقعية التاريخية، لكنها ليست تلك الواقعية التي تربط بين الماضي والحاضر في تواصل واستمرار، وإنما يستخدم بشيوع أسلوب المقارنة بين ماضٍ مثقل بالتخلف والأوزار، وحاضر يشرق منه الأمل، فالتاريخ عنده لايعدو أن يكون مجموعة أساطير عفّى عليها الزمن:

كانت الحوريات تعود ثانية

تخرج من الأساطير

حتى تفرغ الأسطورة من مضمونها

الأساطير هي آخر عنابر الأمة

تبقى في الأماكن المهجورة

* *

ونلاحظ أن قصائد اسماعيل كاداريه تشكل وتحتل حيزاً في الفترة الواقعية التي مرّ بها الشعر الألباني في حقبة مابعد التحرير، وفي ظل التطلعات العظيمة للجيل الجديد الذي شرع ينمو ويتألق عطاءً وبناءً. فكان الشاعر كاداريه المعبّر الأمين عن تلك التطلعات بواقعيته الهادفة، وقد ازداد نضجاً ورسوخاً في رؤيته الفنية وطرق التعبير عنها بعد صدور ديوانه (الهام صبياني) ١٩٥٥م الذي تعكس قصائده بعفوية وانطلاق عاطفي، إذ يــبدو" البطل" فيها نمطاً من الشبان المتحمسين . وقد تجاوز كاداريه هذا الاندفاع العاطفي إلى رسم نماذج واعية ذات رؤية شمولية وعميقة، واستخدام أساليب ورؤى فنية تتجاوز نقل الحقائق أو المباشرة في توجيه الأفكار، أو المواعظ والارشاد .. وذلك بعد صدور ديوانه الثاني (أحلام) ١٩٥٧م، فقد بدا كاداريه أكثر تمثلاً للواقعية باستخدام تقنيات تنأى بشعره عن المباشرة والتعليمية الفجة، فاهتم بالمشكلات الكبرى التي تواجهها بلاده، ثم توالت دواوينه: (القرن الذي أعيش فيه)١٩٦١م. و(بِمَ تفكر هذه الجبال؟) ١٩٦٤م. و (موضوعات فنية تحت الشمس) ١٩٦٨م. و(مختارات شعرية)١٩٧٦م. وهو في كل هذه الدواوين يحاول أن يرسم صورة المستقبل المشرق الذي ينتظر وطنه ألبانيا بعد التحرير، داعياً الشباب والعالم إلى أن يعلّقوا سلاحهم بمسامير القوافي لبناء ألبانيا، لكن التاريخ عنده يبدو ومضات فاعلة، فهو يختار تلك المواقف الثورية التي تعكس إرادة الصمود والتحدي لدى الإنسان، أما التاريخ الذي يسرد سير الملوك وآلام البائسين، فهو جدير بأن يطرح في النار، وهو يرمز بحصان طروادة إلى شبح الاستعمار الذي اكتسح شعوباً آمنة فأذلّها واستنفد طاقاتها:

لقد طاب لك لحم المدن

أيها الشيطان

تخبّ مسرعاً كالسيل الأبيض

كالقمر

وعيناك من خشب أجوف

تجولان في كل صوب

وتلوب أبداً

في نهر لا ينتهي

وبطنك الخشبي

لا يعرف الشبع

* *

ها أنت ذا تتجه إلينا

ترمقنا بعينين غائرتين مظلمتين

حذار، فأنت تجهل أننا نعرفك

تحسب أنك تأخذنا على حين غرة

في زمن مبكر

حذارِ .. حذارِ

فأنت تسعى إلى موتك

* *

وهكذا تتجاوز واقعية الشاعر اسماعيل كاداريه الماضي والحاضر لتتطلع إلى المستقبل بأمل باسم حيث يغدو الواقع هو الممكن عبر تفاؤل ثوري يثق بالشعب وطاقاته الخلاّقة .

ونلاحظ أيضاً أن أرض ألبانيا تسهم بجبالها وأوديتها وطبيعتها المنيعة في تعزيز النــزعة الواقعية لدى الشاعر، فيرى فيها محارباً منيعاً يتعذر قهره،ويساعد أبناءها على الصمود :

بِمَ تفكر هذه الجبال الشامخة ؟

عندما تغيب الشمس وراء السفح

يتسلق مغامر عند الغسق

حين تلقي بندقيته ظلّها المديد

فوق أرض الوطن

يتحرك ذلك الظل سريعاً

قاطعاً مسافات من الجبال

والسهول والقرى

* *

وأنا أيضاً

أسير على منحدر

مستغرقاً في تفكير عميق

مَنْ ذا يعرف مكاني ؟؟
ظلال بندقيتي وفكري ؟

*   *

ويلح اسماعيل كاداريه في إنجاز صورة الواقعية على تصوير الشخصية الألبانية في صورة البطل الفرد، أو تمتد هذه البطولة لتغدو ألبانيا كلها بطلاً أسطورياً :

عندما تجرف السيول الطمي
تبقى جذور الأشجار عارية
وهكذا، فإن السنين الطويلة
نخرت عظامك

*   *

مرت عليك قرون
عضّك العدو
ونثر منك قطعاً هنا وهناك
هاجمك ذلك المشرد
وعندما تقدمت إليه
صفعت وجهه الكريه
لم تتوقفي ..
لم تتراجعي يا ألبانيا

*   *

على أن البطل النموذج عند الشاعر كاداريه ليس مقاتلاً فحسب، إنه ألباني بسيط، فلاح مرتبط بالأرض، يعمل للسلم، ويوفّر القوت للأبناء، ويسعى أن يطوّر نفسه، فبعد التحرير لا يليق أن تظل ألبانيا كما كانت صورة للجمود والتخلّف، وعبدة للمستغلين من رأسماليين وإقطاعيين، إنها ألبانيا الجديدة المسلحة بالعلم والتقنية، ألبانيا التي يتخيل الشاعر صورة مستقبلها ويتخيلها كأنها واقع محتوم في قصيدة (حلم صناعي) التي نظمها بعد تطور التصنيع في البلاد على صعيد واسع بين الخمسينيات والستينيات، فقد تمّ بناء سلسلة من المعامل والمصانع الحديثة التي أثارت خيال الشاعر ووجدانه، فراح يرصد عظمة إنجاز الجماهير الكادحة معبّراً عن سعادته بهذه النهضة، حتى بلغ عدد أبيات القصيدة (١٣٧) بيتاً، أضاف إليها الشاعر فيما بعد مقاطع جديدة وأفكاراً حديثة، وحرص على إغنائها بأفق فني يرتبط بالتاريخ البطولي للشعب حيث جعل الأبطال التاريخيين يطلّون من قبورهم الباردة ليشهدوا عظمة المدينة الصناعية التي أنجزها العمل :

وتسكب أول دفعة معدن مصهور

وألبانيا تُعطي معدنها الذي يخصّها

فولاذاً حياً

ويتحرك في قبورها الباردة

الأبطال

الذين اجتازوا المحن بسيوف غريبة

وحديد غريب

فاصنعوا أيها العمال .. سيفاً

لذكرى (جورج كاستريوت)

من أول وجبةِ معدن تصهرون

*   *

وستكون هذه المدينة الجديدة إنجازاً ثورياً يعكس موقفاً عقلانياً وجيلاً جديداً لا يعترف إلا بالعلم والتقنية الحديثة :

مدينة جديدة

لا قبة فيها ولاجرس

لم يكن آنذاك رجل متسكع

ولا ناقوس يدق معلناً الموت

ليس إلا صفارات المعامل المدوّية

تشيّع الصناعي إلى قبره

وفرن (مارتن) تنهلّ دموعه

فولاذاً ساخناً

ومعدناً وفياً

*   *

ولا بد أن يتصف أهل المدينة التي ترمز إلى ألبانيا بالأخلاق النبيلة التي تحثّ على العمل والأخلاق والصدق، أما قيم المجتمع القديم فلا مكان لها :

لا بدّ من أمور مبتذلة
يمكّن الأخلاق البروليتارية
ستظل فوق كل قذارة
لامعة، نظيفة دائماً

* * *

وستزول عادة الثأر التي استحكمت بفعل التقاليد والعادات الموروثة، وسينحدر ابن الجبل المنفي، ويرمي الريفي الشيخ مسدسه العتيق الذي ذخره لتأديب فتاته التي أحبت جبلياً، وقد سحره بريق الحياة الجديدة، واعترض نـــزعة الشرّ فيه دفاع الجيل المعاصر عن قيمه الراقية .

قد يرى بعض نقاد الغرب في مثل هذا الشعر لوناً من الدعاية أو المباشرة، وبُعداً عن الفن الذي هو في نظرهم انكفاء على الذات، وفردية تجتر آلامها، وفاتهم أن الأدب يفقد غايته إن أصبح عزفاً منفرداً على قيثارة الذات، تلك الذات التي انغلقت على نفسها، وتخيلت أنها محور العالم متناسية أن أحلام الإنسان لا معنى لها إن لم يكن لها طابع اجتماعي، ومشاركة إنسانية .

لقد خلّفت الواقعية في مستوياتها العليا، وأساليبها الفنية المتميزة تراثاً أدبياً خالداً، ولا تقل واقعية الشاعر اسماعيل كاداريه عظمة عن

واقعية أعلامها من أمثال : بلزاك وتولستوي وزولا وموباسان لأنها تقوم على أنماط راقية من الإلهام والتعبير، وتستخدم الأشكال الرمزية التي تتسم بالعمق والبعد عن المباشرة، وإذا كنا نلحظ بعض المباشرة في قصائد كاداريه فإنما يعلِّل ذلك بأنه كان يكتب للناس وللجماهير العاملة التي لا يعرف بعضها القراءة والكتابة، وأنه كان حريصاً على أن يتوافر لشعره الانتشار بين الطبقات صاحبة المصلحة في التغيير الاجتماعي، على أنه قصائد متميزة حشد لها الشاعر تقنيات رائعة في مستوى العمل الفني، ولفّع أفكاره بظلال من الرموز، ورسمها على صورة أحلام وآمال تشهد بتمكنه الفني وبراعته في التناول، وتثبت أن واقعيته ليست نقلاً مباشراً للواقع، وإنما هي واقعية إنطباعية أو رمزية يختلط فيها الفكر بالشعور، ويكتسي فيها الواقع زغباً وأجنحة وضفافاً خصيبة من التأمل والخيال وجمال التعبير.

* * *

رواية «كاداريه»

بين واقعية الحلم، وحلم الواقع

يقوم الفن الروائي على لون من الإيهام، إذ يحاول الكاتب أن يجسّد حلمه، وكأنه واقع حيّ يُلمس ويُعاش، لكن لعبة الإيهام هذه التي تقوم على إشعار القارئ بأن (ما يجب أن يكون كان فعلاً) تتطلب حذاقة من الروائي وبراعته في اختيار الحدث الروائي واستغلاله بذكاء إلى درجة أن القارئ يعيش على تخوم الواقع والحلم، فلا يكتشف أن الكاتب يُقدم له عالماً وهمياً أو متخيلاً، إنه يلمسه واقعاً حياً مجسّداً من خلال رسم الشخصيات والحوار وحركة الحياة التي تمور بها الرواية وكأنها منتزعة من عالمه الواقعي، فلا يأتي الحلم مغايراً للواقع، يتجاوزه أو يقسره قسراً.

ولا يقدم للقارئ بصيغة مباشرة تفضح غايات الكاتب وتكشف خيوط اللعبة الخفية التي يبدو فيها المتخيّل وهماً لا يمتّ إلى حياة القارئ بصلة.

وإذا كانت الرواية الرومانسية قد نحت منحى مغايراً من حيث مباشرتها وقصدها في تغريبه إلى عالم من الخيال والوهم، فإن الاتجاه الواقعي على نقيض ذلك يلبس المتخيّل ثوباً من الواقعية ليقرب بين عالم المثل المنشود وواقع الحياة، فلا يغدو ذلك العالم المثالي "يوتوبيا" يصعب

تناولها بل يصبح جزءاً من نسيج الحياة يتحقق في الممارسات السلوكية للإنسان انطلاقاً من أن الحياة فيها جانبا الخير والشر. وإن ما نصبوا إليه ليس هدفاً مستحيلاً يدخل في عالم الأوهام. إنه كامن فينا، وبذرته تحتاج إلى الرعاية لتنمو وتثمر.

و"إسماعيل كاداريه" من أبرز الكتاب الواقعيين الذين استطاعوا أن يهبطوا الحلم الإنساني من أفقه المثالي إلى دنيا الواقع، ويزيلوا الحدود بين المتخيل والملموس والمثالي والواقعي، بصورة مقنعة لا تكلف فيها ولا تصنع. وهو أعظم الروائيين الذين جسّدوا أحلامهم وسرّبوها بلطف إلى القراء دون مباشرة أو توجيه وعظي يفسد جمال اللعبة الفنية التي يقوم عليها العمل الروائي. وبلون من البساطة التي تخفي وراءها العمق الفكري ورهافة الشعور وبعد الغور الثقافي.

ينطلق "إسماعيل كاداريه" في تجسيد الحلم واقعاً حياً من أسطورة شعبية أو خرافة أو حدث بسيط قد لا يثير انتباهنا في الحياة العادية، وهو لا ينظر إلى المعتقدات الشعبية على أنها مظهر من مظاهر التفكير البدائي والتخلف، بل يرى فيها روح الشعب المتوارث من جيل إلى جيل، وهو يقترب من "يونج" في تسليمه بأن الأجيال ترث عن الأباء والأجداد تلك القوة المسيطرة والفاعلة والمتحكمة في شخصية الفرد والشعب، وهي تتجلى في أحلامها ومعتقداتها وأساليب تفكيرها، وفي هذه المعتقدات يلتقي فيها الواقع بالحلم، فيتداخلان إذ تصلح كل أسطورة أو حكاية أو خرافة شعبية أن تكون منطلقاً للرواية التي تقع على حدود كل منهما بلا انحياز.

هنا يلتقي الوهم بالحقيقة والخيال بالواقع والحلم باليقظة، فيتكون من ذلك اللقاء عالم بديل للواقع يتعالى عليه دون أن يرفضه أو يتجاوزه.

وقد يكون العكس تماماً حين يختار "إسماعيل كاداريه" من الواقع حادثة بسيطة فينسج منها عالماً متخيلاً يغذيه خيال محلّق وثقافة عميقة ومعرفة واسعة ببيئة شعبه وثقافته وأعرافه وممارساته، فيخيل للقارئ أن ما يعرضه الكاتب هو صورة منتزعة من الواقع بلا إيهام ولا تخيّل.

والحادثة التي ينطق منها "إسماعيل كاداريه" في رواية "جنرال الجيش الميت" لا تعدو أن تكون خبراً عابراً، ربما قرأه في إحدى الصحف أو سمعه من صديق عن بعثة إيطالية تفد إلى ألبانيا بعد انتصار المقاومة الألبانية بعد التحرر بإشراف أحد الجنرالات، والواقعية على بساطتها غنية بالإيحاء لأنها تقوم على المفارقات الإنسانية.

لم يكن "إسماعيل كاداريه" بحاجة إلى خبرة عريضة أو ملفات ووثائق لتدوين هذه المفارقات، فإن قوة الإيحاء الكامن في هذه الواقعة وعبقرية مخيلته أمدّته بمادّة يكسو بها هذا الحدث لحماً ودماً، حتى بدا وكأنه جزء من الواقع المعيش.

في رواية "جنرال الجيش الميت" وجهان : مأساوي مؤلم، وساخر يندمج بالمأساوي ليكوّنا مواقف درامية مثيرة، الجنود الذين تباهى بهم المستعمر، وقلّدهم أوسمة الشجاعة في تثبيت مطامع الاستعمار الإيطالي، ويعودون إلى بلادهم رفاتاً غير كامل، مجموعة ناقصة من العظام، والمفارقة المؤلمة أن المشرفين على نبش القبور لا يتورعون عن شحن هذه العظيمات على دفعات أو إجراء مبادلات ساخرة ومؤسية في الوقت

ذاته بين عظام جندي وجندي آخر، يقول العميد رئيس البعثة التي تنقّب لمصلحة دولة غير إيطاليا للجنرال الإيطالي:

- إنما أسوأ ما في الأمر، أننا لم نرسل الرفات كاملاً، بل أرسلناها على دفعات، وهذا شرك لم تقع فيه إلا أنت.

ولا يتورع العميد من نيل المكافآت من الأهلين الذين فقدوا أبناءهم:

(لقد وعدت بتقديم مكافآت عظيمة للذين كلفوا التفتيش عن الرفات ليس لي بالطبع، قال ذلك وهو يبتسم .. وأردف :

- ما من أحد تجرأ أن يغريني بعرض من هذا النوع، ولكن موظفيَّ قبلوا مثل تلك العروض.

والسخرية المرّة أن يغدو رفات هؤلاء الأبطال معرضاً للسمسرة، فالعميد يقول للجنرال الإيطالي والقس: (ألم تقل أنك بحاجة إلى هيكل عظمي مقاسه ١,٨٢ سم. لدي عدة هياكل من هذا المقاس.. إذا أردت واحداً.. فستختار واحداً منها، هناك واحد من رماة الكتيبة الثانية، وواحد من كتيبة الدبابات .. ولكن هذا ينقصه سنّان أماميان .. ليس هذا عسيراً، يمكن أن يضعها طبيب الأسنان..).

تمزق هذه المفارقات قلب الجنرال الإيطالي الذي قَدِمَ إلى ألبانيا، وهو مفعم بالقيم الوطنية، فتنكشف له الحقيقة عارية. بعض من استخرج رفاتهم فرّوا من الخدمة، وعملوا أجراء في بيوت الألبان، أما الجنرال "ز" الذي خصّ رئيس البعثة رفاته باهتمام ملحوظ، نظراً لصلته بزوجته الحسناء، كان يتصور أن هذا الجنرال سقط في ساحة الشرف في سبيل بلده إيطاليا، وتتجلى له الحقيقة المرّة حين تحمل إليه رفاته عجوز ألبانية كانت قد قتلته ودفنته في عتبة بيتها لأنه اعتدى على عفاف ابنتها ..

كانت تلك أقسى المفارقات، وقد أخزته في مشهد حافل من الألبان إذ سمح لنفسه أن يحضر أحد أعراسهم، فلما طرحت العجوز الثائرة الكيس الذي يحوي رفات الجنرال "ز" أمامه في الحقل، وأحسّ أنه قد أخزي تماماً، وتمت تعريته، بل تمنّى لو أن الأرض تبتلعه وهو في زهو غروره .

لقد لقّنه الألبان درساً عرف منه تفاهة ما يبحث عنه، فكان أول ما بادره أن طرح رفات الجنرال " ز" من شاهق إلى الوادي، لقد صادر الألبان حلمه في إطار حلمهم الإنساني العريض، لقّنوه عظمة الشعوب التي يحتقرها على الرغم من تماديه بزيارة لهم في أعراسهم .. فإنهم كرّموه ولم يغدروا به، لأن من أعرافهم إكرام الضيف، لكنه شعر بأنه دونهم بكثير، وكذلك شعبه الذي مارس عليهم كل صنوف الإبادة والغطرسة.

وتذهب مخيلة "إسماعيل كاداريه" بعيداً عن تفتيق جوانب الحدث الذي لم يكن إلا فكرة عابرة، فبعد العثور على جثة أحد الجنود التي ظلت تحتفظ بكيانها يعلّق أحد الألبان قائلاً: إن أرض الوطن رفضت أن تهضم أجساد الغرباء ..

وحين يموت العامل الذي كلف الحفر بسبب تلوث جسده ببقايا رفات الجنود، ينقل الكاتب بلسانه قبل أن يموت : لم يقتلونني وهم أحياء لكنهم نجحوا في قتلي وهم أموات ..

ويسترسل "كاداريه" في تصوير خواء الإنسان الغربي حين يجعل زوجة الجنرال "ز" الحسناء، لا تتورع عن متابعة حياتها اللاهية بعد وفاة زوجها، لكن اهتمامها برفات زوجها لم يكن لمحبة تكنها له، وإنما إرضاء للدوقة والدته التي ستموت قريباً، وتخلف ثروة تطمح أن تؤول إليها.

وهكذا يستغل "كاداريه" خياله المبدع لنسج عالم حيّ من الوقائع الساخرة التي تدفع بها المطامع الاستعمارية، ولعل أبرز هذه الأشكال من السخرية حديثه عن مجموعة من المومسات استوردهن الجيش الإيطالي للترفيه عن الجنود، ولمّا قتلت إحداهن عدّت بطلة في نظر القائمين على الأمر، ودفنت بالتبجيل وكتب على نعشها أنها ماتت في سبيل رفعة إيطاليا.

ويبرز الكاتب الواقع الألباني في المواجهة واقعاً حيّاً يتوحّد فيه الإنسان بحلمه، فلا قيمة له إلا بمقدار تضحياته في سبيل الجماعة والاتساق مع أهدافها.

ولم يكن ثمة اهتمام بالقبور لديهم حيث يسقطون شهداء (إن قبورهم تبدو في الربيع وكأنها قطيع من الغنم، ينتشر فوق التلال المطلّة على البحر، ما من أحد يعرف أسماءهم أو المناطق التي قدموا منها، إذاً لأمكن نقش بضع كلمات على قبورهم) .

هنا يغدو الإنسان المدافع عن أرضه محض ذرة من الجماعة، على نقيض الإنسان الغازي، والكاتب "كاداريه " لا يتحدث عن الأفراد وهو يصوّر نضال أبناء وطنه، ولا يعني برسم شخصيات منهم أو تحليلها، ويتحدث عن شعبه بصيغة الجماعة، وكلهم يربط بينهم حلم التحرير.

ومقابل التركيز على الشخصيات الوافدة في البعثات التنقيبية كشخصية القس والجنرال رئيس البعثة الإيطالية والجنرال "ز" لا نجد في الرواية أي ملامح لشخصية ألبانية، وإنما نلمس روح الشعب و توحّد أفراده في حلم التحرير، ومقابل التقنيات التي يصفها في عمليات التنقيب والتنظيم الإداري للجيش الغازي لاهتمامه بتدوين مواصفات الجنود

المقاتلين لتعرفهم إذا ماتوا، يبدو المقاتل الألباني مستسلماً لعفوية قدرية، منضوياً تحت لواء المقاومة، ومندفعاً للقتال تحت تأثير عدالة قضيته، في حين يقاتل جنود العدو دونَ اقتناع، وتضفي المعتقدات الشعبية الألبانية على الرواية مزيجاً من الخيال والواقع.

ويُبرز " إسماعيل كاداريه " من خلالها وحدة شعبه وتماسكه، فهي مصدر قوته وإيمانه، ولا يكفّ عن تعزيز هذه الوحدة حتى لدى الأطفال، فيخصص فصلاً لا رقم له من الرواية، يصوغ من خلاله حكاية للأطفال عن الغزو الإيطالي، ويربط النضال الوطني الألباني بالموروث الديني الذي يتجسد بأحلام الشعب وتخيلاته ..

كما يبرز دور الأناشيد الشعبية في تأرجح النضال الوطني (تلك عادة شائعة كثيراً لدى الألبانيين في بعض المناطق، فما أن يجتمع منهم ثلاثة أو أربعة حتى يشرعوا بنشيد جماعي، وهذا أحد تقاليدهم المميزة).

ولا يكف الكاتب "كاداريه" عن الموازنة بين حلم المستعمر وآلياته في تحقيق هذا الحلم معززاً بحق الشعب في الحرية، بينما يتلاشى حلم المستعمر لأنه لا يستند إلى حق شرعي، ولأن القائمين على تحقيقه لا يملكون الإيمان به، ولا يسفر إلا عن رفات بالٍ لجنود ماتوا وهم يقاتلون دون أن تكون لهم قضية.

وتتجلى براعة الكاتب "إسماعيل كاداريه" في مزج الواقع الذي خبره بلون من الرومانسية المؤثرة، والتي لا يبدو عليها التكلف، فقد استطاع أن يجسدها بحلم اطلاعه الواسع على تقاليد بلده وثقافته ومعتقدات أفراده، فجعل من هذه المادة سبيلاً لرسم عالم متخيل، لا يفتقر

كلياً عن الواقع، وبدا مقنعاً رغماً عن أن الموضوع الوطني يصعب عرضه دون أن يبرز انحياز الكاتب ومباشرته .

وليست رواية "جنرال الجيش الميت" هي الوحيدة التي استثمر فيها "كاداريه" مخزونه الثقافي، ومعرفته العميقة بالموروث الشعبي الألباني ليوحّد من خلالها الواقع بالمتخيل، ففي كل أثر من آثاره يبرهن على براعته في استغلال ذلك الموروث لبناء عالم متخيل لصورة وطنه، يبدو فيها صادقاً ومقنعاً حتى ولو كان مبنياً من التماهي مع التراث الروحي للشعب الألباني الذي يحسن "كاداريه" التعامل معه وتقديمه، حتى لو كان أسطورة لا تمت إلى الواقع بصلة، فإنها تبدو جزءاً من الواقع الشعبي، وخير وسيلة للنفاذ إلى روح الشعب من خلالها .

إن واقعية الحلم الذي يجسده الكاتب "إسماعيل كاداريه" بخياله تطابق حلم الواقعية المتجلية في الحوارات والوصف والتحليل، وتضفي على روايات "كاداريه" بعداً إنسانياً رائعاً، يمتزج فيه الخيال والأسطورة والممارسة الحياتية لتكون نسيجاً حيّاً يعكس روح الشعب وجوهره الإنساني، فواقعيته مفعمة بالتطلع و التأمل، وتفترق عن واقعية الكتّاب الغربيين التي تبدو جافة أحادية الأبعاد، لأنها تلتفت إلى الفرد، وندر أن تغوص في الأعماق لتستخرج البذرة الكامنة في الشخصية التي تتوحد بها مع الآخرين، وتتكوّن خلال مئات الأجيال من خلال التجارب و الممارسات والبيئة الزمانية والمكانية.

* * *

الملامح الوطنية في رواية

(جنرال الجيش الميت)

في رواية (جنرال الجيش الميت) يرسم الكاتب الألباني "إسماعيل كاداريه" صورة المقاتل في شخصية البطل "نيك مارتيني" ويمثل شخصية المقاوم الألباني الصلب صلابة جبال ألبانيا، حيث يروي الراهب الشيخ للجنرال الإيطالي الباحث عن جثث الجنود القتلى قصة "نيك"، كان رجلاً مغموراً هبط بمفرده لمواجهة جيش الاحتلال الإيطالي، وارتقى مرتفعاً منيعاً، واستمر يطلق النار مدة ساعة ونيف، وحاول الراهب منعه شفقة عليه، لأنه يقاتل جيشاً بمفرده، إلا أنه ظلّ يصوّب بندقيته إلى الطريق التي يحتشد فوقها الجنود الطليان من موقعه الجبلي الحصين، وحاول الطليان التسلق إليه فقتل منهم نفراً إلى أن أصابته قذيفة مدفع هاون. لقد عرقل تقدم كتيبة بكاملها، وحين حوصر صرخ الصرخة المعهودة لدى أبناء الجبال حين يبلغهم نبأ مصرع قريب . ثم تناوشته الحراب .

ويعلّق الشيخ الراهب على هذه البطولة فيقول: يرى الألبان في القتال الفردي شرفاً كبيراً. وهو عادة متأصلة في نفوسهم.. ويضيف "كاداريه" في مقطع آخر من الرواية:

كان للألبانيين في كل زمان شغف بالسلاح، وازداد هذا الشغف والولع بطبيعة الحال إبّان الحرب. كل الناس هنا مصابون بجنون الحرب، فقد انطلقت غرائزهم القتالية الموروثة من عقالها، حتى غدا بالغ الخطورة .

ويحاول الجنرال تعليل هذه الظاهرة في حياة الشعب الألباني الذي استثاره الاحتلال فيقول:

لعلّ سبب تصرفهم هذا يرجع إلى أنهم في قلب المعركة، فهم أشبه بالأسد حين تجرحه أول رصاصة.

وتبدو الشخصية الألبانية متحفزة تتوقع الخطر دائماً وتجسمه، إلا أنها شخصية طيبة لا تعرف الحقد، فسرعان ما تتسامح ويصفو قلبها بعد الخصومات، يقول الجنرال: (ما عجزت عن تفسيره هو أنهم لم يحقدوا علينا بعد الاستسلام، بل على نقيض ما كنا نتوقع، حافظوا على قواتنا المسكينة من حلفائنا القدامى. وإني اذكر ذلك النداء الذي وجهوه لكل أفراد الشعب بعد استسلامنا وقد التمسوا فيه ألاّ يتركوا جنودنا يموتون جوعاً).

على أن البندقية لم تصوّب إلى صدور الأعداء فحسب، إنها أمست سلاحاً للمعارك الأهلية والخصومات المحلية وطلب الثأر، وبذلك غدا السلاح تعبيراً عن روح الشرّ بمقدار ما هو عن المنعة والقوة . ففي رواية (العرس) لكاداريه؟ يستعرض العريس صف المسامير المعلقة على الجدار، وفوقها البنادق، فيحس بالسعادة لمنعة قومه وقوتهم وتعذر قهرهم، وهو يطلق من بندقيته في الموكب الذي يقلّ عروسه عيارات كان يكمن فيها الشر وكأنها شيطان يتطلع إلى الهاوية، وينذر بحدث

مأساوي سيقع، وهو مصرع شقيق العروس في ليلة عرس أخته، ولم يجرؤ صاحب البيت على الثأر للقتيل بسبب تربص الخصم خارجاً (لقد بذر ما عنده من قمح في أرضه لكنه لم يبذر بعد دمه حسب قانون الثأر، كانت ساقية الدماء هذه أغلى عنده من المحصول الذهبي) .

ويحاول الكاتب "إسماعيل كاداريه" جاهداً أن يقف في وجه العادات والتقاليد الألبانية الراسخة، فيصوّر جيلاً جديداً من الشبان الثوريين أخذوا على عاتقهم التخلّص من رقبة الموروث، وليس ذلك بالأمر اليسير.

ويرد الكاتب كاداريه القسوة التي تتمتع بها الشخصية الألبانية إلى تكوين الإنسان الألباني وإلى الأحداث المأساوية التي تعرّض لها عبر تاريخه الحافل بالمواجهات الدامية والصراعات القاسية. ومن جهة أخرى تبدو بيئة ألبانيا الجبلية وطبيعتها عاملاً حاسماً في تشكيل سلوك الفرد الألباني: (العرس الألباني لم يتحرر بعد من كابوس العالم القديم الجاثم، ولعل هذا الأمر سبب بقاء الشعور ببعض الخوف الكامن في أعراسنا الحديثة، فهو تركة عصورٍ طويلة كصدى أي صوت ينبعث من أعماق الفضيلة).

وفي رواية (الحصن) حين يستدعي طوسون باشا التركي قائد الحملة التركية على اسكندر بك ليصف له طبيعة البلاد التي سيقوم على مهاجمتها، يسهر المؤرخ طوال الليل، ثم يقرأ لطوسون باشا وصفه لجبال ألبانيا: (إن هذه الجبال عالية.. إذ لا تستطيع الغربان نفسها التحليق فوقها، والشيطان وحده قادر على اجتيازها بصعوبة بعد تمزيق نعليـــه)..

إن حياة الشعب الألباني فوق هذه الأرض القاسية والمنيعة كوّنت عبر تاريخه الطويل ذاكرة جماعية تربط بين الحاضر والماضي بجذور تاريخية قوية، وعادات وتقاليد تتجلى فيها الروح الألبانية الخاصة .

ونلاحظ أن روايات إسماعيل كاداريه لم تكن في واقع الأمر سوى بحث دائم عن هذه الروح، وتمثل مراحل انتصاراتها وإخفاقها، على أن كاداريه لم يؤرخ الواقع الألباني في حدود رؤيته للماضي السحيق فحسب، بل فرضت عليه حساسيته المرهفة وشاعريته المتدفقة أن يمزج الواقع بالدراما والمستقبل بالحاضر والماضي، فشخصيات رواياته التي اختارها من أوساط مختلفة وطبقات متعددة تتمتع بحسّ وطني وسمات محلية، لكنها تعكس الروح الألبانية التي يمتزج فيها الواقع بالحلم، والحقيقة بالخيال، والمعاصرة بالموروث .

ويعتمد كاداريه كثيراً على دور الفن في تشكيل الروح الألبانية، ويقول بلسان "مولى شلبي" في رواية (الحصن) :

(المعركة التي نشبت منذ شهر، تحولت إلى نشيد. وإن أردت أن أعبر عن فكرتي على طريقتك لقلت: إن هذه الحروب التي تحولت إلى نشيد، ستنزلق عبر القرون كسحابة تدفعها الريح، قد تنتهي الحرب، لكن النشيد يستمر عبر الأجيال، ويولد الحرب بدوره، لأن الأساس في هذا العالم أن كل شيء يتجدد .. حتى مصيبة الحرب تتجدد) ويعلق مؤرخ طوسون على الحديث قائلاً :

شعوب صغيرة ، ولكنها تخلق مع ذلك متاعب كثيرة، وستكون لنا معهم معركة الموت ..

وفي رواية (الملف H) يربط إسماعيل كاداريه بين تراث الأمة الملحمي وحاضرها، متابعاً، رحلة الغناء الألباني الملحمي عبر التاريخ حتى ليغدو البحث عن عناصر الملحمة الألبانية بحثاً عن جذورها الإنسانية في العهود السحيقة، وتغدو الإلياذة من إبداع منشد ألباني جوّال مجهول، إلا أن دروب هؤلاء الباحثين تتشعب، وآفاق البحث تتسع حتى لتغدو الأصول العريقة للملحمة عصيّة على الاختراق والتجديد .

رسم الكاتب إسماعيل كاداريه ملامح الإنسان الألباني من خلال عدد من الشخصيات، بعضها واقعي نموذجي وبعضها ملحمي بعيد الغور، إلا أنه كان دائماً يربط الشخصية الفردية بخصائص شعبها، ويرد سماتها إلى صفات جماعية، ويقول بلسان الراهب في رواية (جنرال الجيش الميت) بعدما لاحظ الجنرال أن جموع الألبانيين يتزاحمون على الأكشاك التي تبيع الصحف :

(الألبانيون مولعون بقراءة الصحف ، ولهذه الظاهرة تفسيرها، فهم شعب منعزل، وطنهم محاط بالأعداء .)

ويستغرب الجنرال أن يقاوم شعب صغير جيوشاً عاتية في مثل ظروفه، وأن يتمتع بروح المقاومة وعدم الخضوع، ولكنه مقابل ذلك شعب رقيق يخضع للجمال .

وبالمقابل تنعكس سمات الشعب العامة على وجوه الأفراد ومظاهرهم، فالبلاد كما يراها الراهب بلاد حزينة تستمد كآبتها من سفوح جبالها الصخرية، وفي عادات سكانها بعض صور الحزن التي تبدو من خلال معاطف الرجال السود، وتنانير النساء القاتمة، وأناشيدهم

أكثر حزناً. (ليس من شعب عرف عبر القرون مصيراً أسود مثل هذا الشعب، ومن هنا تنبع قسوته ومرارته) .

* * *

وفي رواية (موظف قصر الأحلام) ينصب اهتمام البطل "مارك عالم" على الآلات الموسيقية الألبانية التي يدعونها (لاهوتا) وهذه من المقاطع الخشبية البسيطة من ذوات الوتر الواحد القمينة بأن تبعث الحياة في نشيد الكبرياء والإباء . وكان يتوقع أن يراها آلة ثقيلة مغمسة بالدم الذي يرتبط بالذهن بقساوة الملحمة الألبانية، وحين بدأ العازف الألباني نشيده خيل إلى "مارك عالم" أن اللحن تجرد من كل نبراته الدنيوية المعهودة، ولم يحتفظ بغير النبرات الأبدية، كان صوتاً ائتلفت فيه طويلاً حنجرة الألباني وحنجرة الجبل حتى زال بينهما كل تمايز، وكان عليهما أن يتوافقا إلى أن ينصهر الكل في أغنية النجوم الحزينة ..

كانت آلة (لاهوتا) تحكي ملحمة بطل تحدى حدوده فوق قبره، لكن الميت الخالق عاجز عن القيام للمبارزة، إنها ألبانيا تتحدى أعداءها الأقوياء في قلب قصر السلطان، وفجأة تسود القصر جلبة، ويظهر شرطة السلطان إذ وجدت "شعبة التأويل" المتمردة، ويغدو التاريخ والفن بثقلهما هما المحرك لهذه الروح، وهما الكفيلان بتحريك مشاعر الجماهير عبر العصور لطلب الحرية، حتى الفئات التي تعاونت مع المحتلين "كآل كوبر للي" .

إن الكاتب إسماعيل كاداريه يجسّد في رواياته أحلام الشعب الألباني بأسلوب رمزي، وبمنحى درامي معاصر يسود فيه التغريب والخيال،

ويتحد فيه الخيال بالواقع السياسي بنفَسٍ ملحمي يستعين بالملامح والأساطير الألبانية والتراث حتى تغدو فيها المؤسسة السياسية العثمانية مشغولة بتفسير تطلعات الشعب الألباني الطامح للتحرر وأحلامه لتوجيه ضربات وقائية لكل من يحاول تهديد الإمبراطورية العثمانية المتداعية .

لقد تجاوز الكاتب إسماعيل كاداريه الأسلوب الواقعي في رسم الشخصية الألبانية في رواياته .. سواء أكانت هذه الشخصيات فردية أم جماعية فقد انتقل بها من البساطة والوضوح في رسم الملامح والسمات الإنسانية إلى أفق من التعقيد، فمن البساطة والواقعية اللتين يرسم بهما شخصياته في رواية (جنرال الجيش الميت) كشخصية العجوز الصلبة التي طرحت أمام الجنرال الكيس الذي يحوي جثة الضابط المفقود. أو شخصية والد العروس في رواية (العرس)، انتقل بنا إلى أفق أكثر تعقيداً وإغراقاً في التحليل النفسي والفلسفي. وللروح الألبانية في روايتيه (موظف قصر الأحلام) و(من أعاد دورنتين؟) حيث يندمج الفردي بالجمعي في التعبير عن الروح الألبانية، ويتحد الحلم بالواقع، وتغدو هذه الروح حصيلة لتفاعل حي بين ماضي الشعب وحاضره ومستقبله، أي تطلعاته وأحلامه، وهي تطلعات متغيرة تطمح للأفضل، لكن التعبير عنها والسعي إليها يظل سمة ثابتة في حياة الألبان، يسعون إليها تحت تأثير رؤية تاريخية ميثولوجية للعالم، ونَفَس ملحمي شعري، والكاتب في هذا كله يوجه ويعلّم ، غير أن هذه التعليمات التي تثقل رواياته تفرض احترامه في سعيه الدائب لتجلية روح الشعب الوطنية، وهو يحسن عرضها بأساليب من التشويق تبعدها عن المباشرة والدعاية، ويسبغ عليها لوناً من التهكم الخفي الساخر الذي ينتقد ويندد ويطعن في الأعمال، ويتابع الناقد أو القارئ معه رحلته المضنية في تحليل الوقائع

وأعماق الشخصيات من خلال رؤية فلسفية، وفهم عميق للنفس الإنسانية، إلا أن الرؤية ليست إلا إطاراً والشخصيات ليست إلا رموزاً لعالم جديد يريد أن يبنيه الكاتب بالحلم.. وهكذا تتجلى صورة ألبانيا في رواية (من أعاد دورنتين؟) بالفتاة التي تزوجها غريب عن الغرباء، ورحل بها إلى عالم غير عالمها، بعدما استشهد أخواتها التسعة في معارك الدفاع عن شرف الوطن، قتلهم الوباء الذي حمله الغرباء في غزوهم أرض الوطن، لكن "دورنتين" تعود إلى وطنها أخيراً بعد رحلة التغريب، وإن تضاربت الأقوال فيمن أعادها.

زعمت أن أخاها اسكندر أعادها بعد أن بعث من قبره، وذهبت الآراء إلى أنها توهمت عودته، مستلهمة روحه الشجاعة في قطع المفاوز والطريق الطويلة وذهب بعضهم إلى أن الذي رافقها في رحلة عودتها لم يكن إلا أفّاقاً قاطع طريق، ويسقط الكاتب "اسماعيل كاداريه" آراءه على الواقع السياسي لبلده الذي تعرض للاستلاب والاحتلال غير مرة، وجرّب التماس تحرره بشتى الوسائل، فعانى كثيراً من ارتمائه بأحضان الغرباء طلباً للحرية، إلا أن روح الماضي كانت كفيلة ببعثه من مرقده،كما يبعث طائر العنقاء من الرماد .

والواقع أن عودة دورنتين كانت بسبب عهد قسطنطين ذلك العهد الذي قطعه الأجداد على أنفسهم بأن تظل ألبانيا حرة أبية كريمة (لكي أكون دقيقاً .. أقول : تمثلنا كلنا من خلال قسطنطين ، أنتم وأنا وأعواننا الراقدون هنا في المقبرة قرب الكنيسة ، فأعدنا دورنتين)..

ويضيف الكاتب كاداريه بلسان المحقق "ستريس": (نتكلم بإيجاز عن خطر الوضع في العالم أجمع ، والمستقبل المضطرب، والغيوم

السوداء التي تنذر بالخلافات بين الإمبراطوريات الكبرى والأديان، وعن وضع ألبانيا في وسط هذه القارة التي تعصف بها الأنواء .. كل شعب إزاء الخطر المحدق به يحشد أدوات دفاعه، وهنا يكمن جوهر القضية، إذ يخلق له وسائل دفاع جديدة ..

ولما كان الشعب الألباني قد شرع ببناء مؤسساته التي لا تقل سمواً ونبلاً عن العهد، فقد دل على أن ألبانيا تقدم على اختيارها الصحيح والسليم) ..

وبهذا يوجه الكاتب "اسماعيل كاداريه" الشعب الألباني إلى أن التاريخ وحده لا يكفي كقوة فاعلة للوقوف في مواجهة عالم عصرنا الراهن، فلابد للإنسان الألباني من العمل ومجاراة الأمم في تطورها، والإيمان بالعلم والمعرفة .. وبناء وسائل المنعة والقوة التي تهيئ للشعب مستقبله المنشود، ومن أجل ذلك كان خروج قسطنطين أو بعث اسكندر من قبره تعبيراً عن يقظة الروح الألبانية المعاصرة التي لا تكتفي بالتغني بالبطولات الماضية للأجداد والآباء .. بل تضيف إليها روحاً جديدة بالبناء المستمر والعمل المتواصل ..

* * *

العـرس

رواية من بواكير كاداريه

قد تنهار الأنظمة وتتبدل الإيديولوجيات، لكن الأدب يظل يحتفظ بسمات الإنسانية، سواء كان أدباً يسارياً أم بورجوازياً، إذ إن الأدب يثير قضايا إنسانية بعيدة عن الحلول التي يتطلع إليها لمعالجة هذه القضايا .

والكاتب الألباني المعاصر "اسماعيل كاداريه" مع أنّ أدبه اتّسم في مرحلة طويلة من مراحل إبداعه بالصبغة الاشتراكية، والدعوة إلى تحرير الإنسان من كل ما يكبّل حريته وتطلعه إلى الحياة اللائقة بإنسانيته. فرض احترامه وتقديره حتى على معارضي النهج الاشتراكي الذي تبناه، وعلى دعاة الأدب غير الملتزم في الغرب، ويعود ذلك إلى تلك الروح الإنسانية التي يتغذى منها أدبه، والتي جعلت منه كاتباً عالمياً يتجاوز أفق وطنه والنظام الذي كان سائداً فيه بفضل موهبته الأدبية الفذّة، وخصائص إبداعه المتميّز، فالاحتفاء الذي أصاب أدب "كاداريه" على الصعيد العالمي هو شهادة له، وللأدب الأصيل.. بغض النظر عن اتجاهه السياسي أو الإيديولوجية التي ينهل منها، بل يتساءل المرء كيف استطاع هذا البلد الصغير "ألبانيا" الذي أنهكته المطامع الخارجية، وأرهقته

الأحوال الاجتماعية المتردية في مراحل كانت الشعوب المستهدفة فيها كالشعب الألباني تكافح من أجل البقاء، وكان الأدب آخر اهتماماتها في غمرة الصراع مع الطامعين المحتلين، والثورة على الواقع المتردي .

ورواية "العرس" من بواكير نتاج الكاتب "اسماعيل كاداريه" أقامها على حادثة صغيرة، وهذا دأبه في أكثر رواياته ومسرحياته .

خلاصتها أن قطار ركاب تأخر عن موعده ست دقائق، فأقامت هيئة السكك الحديدية تحقيقاً لمعرفة أسباب التأخير، وأكّد سائق القطار أنه رأى عرساً كبيراً يعجّ بالناس، وسرعان ما توصل المحققون إلى أن بعض الوافدين إلى العرس عمدوا إلى العبث بسكة القطار وإزاحة قضبانها عن مواقعها، ثم تبين عكس ذلك تماماً، فقد كان الحادث عملاً تخريبياً، قامت به جماعة من المناهضين للثورة ممن حجمت الثورة نفوذهم، وحدّت من تسلطهم على الطبقات المستضعفة، وقد هالهم أن يتحرر الفلاحون والعمال من دائرة نفوذهم، فيبنوا بسواعدهم " ألبانيا الجديدة " بإدارة تمحو صورة الماضي المتخلف، وتزيل آثار العادات والتقاليد التي استغلها الوجهاء التقليديون لإذلال الناس وإخضاعهم .

يتناول "اسماعيل كاداريه" في روايته مرحلة التحوّل في المجتمع الألباني، وهو تحوّل واسع شمل كل نواحي الحياة، ويرصد أوجه الصراع الدامي في هذا التحوّل، وخاصة ما يتصل بواقع المرأة الألبانية في ظل الإقطاع والرجعية، فقد كانت مسلوبة الإرادة، مهيضة الجناح، وخاصة المرأة الفقيرة البائسة التي كانت تخضع لإرادة السيد المنفذ، فهو الذي يحدد لها شريك حياتها، ويرسم لها مستقبلها في ظل أنظمة

اجتماعية مهيمنة، وقوانين ترسّخ عبوديتها وعبودية أسرتها.. و"كاترينا" بطلة الرواية خير نموذج لهذا الاستلاب (بدا ذلك في الخريف حين عادت إلى البيت، فعلمت أن بعض الضيوف قد قَدِمَوا بعد خروجي، وكنت آنذاك في العاشرة من عمري، صعدت الدرجة فطالعني صفّ من البنادق على الجدار، وفي الداخل رجال يتحدثون ..

قلت: من هؤلاء الضيوف يا أمي ..؟

جاؤوا من أجلك يا ابنتي الغالية ..

لماذا يا أمي ..؟

لخطبتك يا عزيزتي .. ينبغي أن تكوني مسرورة .

صدعني النبأ.. لم أقل كلمة لكنني بكيت، وأنسابت الدموع على خدّي ..

وناداني أبي قائلاً : كاترينا ..!! تعالي أنت مخطوبة منذ الآن ولن تذهبي إلى المدرسة بعد اليوم وظلت فوهات البنادق تحدثني مهددة منكرة، ومنذ ذلك الحين، دخل ذلك السيد المتورم العنق حياتي . لازمني كقبعتي، وحرمني متعة ما جنيت في هذه الشهور، يريد سلخي من هذه المدن والبحار والرفاق وفوق هذا يريد أن يربطني برجل في الأربعين، لم أره قط، يريد أن يبادلني بالكتب والنشرات والأغاني والركوة السوداء وحبل الحطب.. كنت أخشى ورم عنقه وفوهة بندقيته، لكنني أملك الآن رؤية واضحة، وأشعر أني لست وحيدة) .

لم تكن "كاترينا" النموذج الإنساني الوحيد الذي يمثل تعاسة المرأة الألبانية في ظل مجتمع الإقطاع، فقد رسم "كاداريه" بواقعية صارخة

نماذج نسائية أخرى، كنّ ضحايا ذلك المجتمع، ومنهن تلك الفتاة الحزينة التي استدرجها زميل لها إلى أحد الأديرة، حيث تعرضت للاغتصاب وما زالت عقدة الذنب تلاحقها وتنغص عليها حياتها الجديدة .

ويقيم الكاتب " كاداريه" مقارنة بين حال المرأة سابقاً وحالها في ظل الثورة . حيث أصبحت شريكاً للرجل في بناء الوطن، تعمل خارج المنزل وتصادق الشبان من أقرانها العاملين، ويتاح لها أن تختار شريك حياتها بحرية، ولو فسخت خطبتها غير مرة، فهي سيدة نفسها ولا يضيرها أن تقيم علاقات بريئة مع الشبان لتعثر على رفيق حياتها الموعود.. أصبحت إنساناً له كرامته وشخصيته الحرة .

هكذا بدت "كاترينا" العروس التي ثارت بواقعها، وأحبت العامل "دوري" خارجة عن تقاليد مجتمعها، وتزوجته على رغم ما كان يتهددها من عقاب متوقع من أولئك الذين صادروا مستقبلها حين جعلوها زوجةً لرجل مسن، ويتهددها السيد المتورم العنق .

ويرسم "كاداريه" صورة المجتمع الحديث من خلال الحوار الذي تتبادله شخصيات الرواية التي تعدّدت لتشمل نماذج إنسانية متنوعة، وقد أتاح له الإطار الذي اختاره للرواية (حفلة العرس) أن يستعرض نماذج متنوعة ممن يمثلون الواقع الاجتماعي أو الثقافي لمجتمع ما قبل الثورة وما بعدها، فحفلة الزفاف تضم العمال من رفاق "دوري" العريس، والفلاحين الذين يمثلهم الأب المغلوب على أمره، والذي يقرّ في أعماقه تصرف ابنته ، لكنه يخشى سطوة السيّد، فهو حائر مضطرب بين حنانه وخشيته من تلك السطوة ..

ويضاف إلى تلك النماذج بعض ممثلي الثقافة الذّين رسم "كاداريه" شخصياتهم، منهم الصحفي والكاتب (المختص بالعادات والتقاليد) التي أضفت شخصيته على الرواية طرافة وحيوية، فهو رمز للمثقف الجامد عند حدود ثقافته والذي لا يُعرف له مرجعية في الحياة سوى الكتب والمصادر . فهو عاجز عن التلاؤم مع وسطه، وتبدو ثقافته في قلب المجتمع الإنتاجي وكأنها فضول تثير الضحك والاستغراب .

وتـــثير الحوارات التي أدارها الكاتب بذكاء كثيراً من المسائل الاجتماعية والثقافية التي يوجهها لغرس الوعي لدى الناس، ومن ذلك قوله في معرض تعليقه على الرسوم التي ينتجها الفنانون للعمال، إذ يشخصونهم بعضلات مفتولة وسحنة قاسية دون أن يبرزوا ملامحهم الإنسانية وتطلعاتهم إلى المستقبل . (نحن العمال .. لا ينظر إلى أجسامنا وما فيها من خصائص مميزة، ثمة خصائص في قلوبنا أيضاً)

وكذلك الحوار الذي يديره حول سطوة الأعراف والتقاليد المتمثلة بالعرس الألباني .. إذ يرد في الحوارات ما يلي :

(في رأيي أن في أنماط الزفاف الألباني توتراً أو جزعاً يصلان إلى حدّ التنديد والمعارضة، وبالأحرى: ثمة عنصر سلبي يدور حول الزفاف.

أجل فقد هزّت الثورة كل شيء، بما في ذلك الأعراس، لكن العالم القديم يجهد على قسوته أن يحتفظ ببقائه هنا وهناك، والمألوف العريق يصعب تغيره .. العرس الألباني لم يتحرر بعد من كابوس العالم القديم الجاثم، ولعل ذلك سبب بقاء الشعور ببعض الخوف الكامن في أعراسنا الحديثة، فهو تركة عصور طويلة كصدى أي صوت ينبعث من أعمال

الفضيلة) على هذا النسق من التحليل الماتع، يتناول "اسماعيل كاداريه" كل مظاهر الحياة في المجتمع، لا ليقدمها في وقائع، بل ليبحث عن دلالة الواقعة، وبعدها الإنساني، فالأدب لا يطلب المعنى، والكاتب حين يسرد الواقعة إنما يهدف إلى ما خلفها من دلالات عميقة يريد أن يغرسها .

وقد جهد " كاداريه" أن تكون دلالات ما يقيم حوله الحوار واضحة قريبة المنال، ومن ثمّ فإن واقعيته تبغي أداء رسالة، فالأدب رسالة قبل كل شيء، ولا يصح أن تجيء تلك الرسالة مبهمة منغلقة على ذاتها، لأنها موجهة إلى الناس.

ومع ما في الراوية من نزعة توجيهية وتعليمية، فإن خبرة الكاتب الحياتية وبراعته الفنية مكّنتاه من تخفيف هذا النهج الإرشادي الذي يأتي ظله ثقيلاً في الأدب الملتزم، فأغنى عمله باختيار المواقف الإنسانية العفوية والحيّة، وندر أن أقحم تلك المواقف إقحاماً من أجل التوجيه، وإن كانت روايته بالقياس إلى ما كتبه من أعمال لاحقة، تبدو أكثر أعماله تعبيراً عن الاتجاه الدعاوي الذي يسم الأدب الملتزم، فقد تطور فنه الأدبي فيما بعد إلى آفاق من العرض لا يحس فيها القارئ بثقل التوجيه الذي يهدف إليه "كاداريه" ولا بالروح الدعاوية التي وسمت الأدب الاشتراكي، والذي خفّف من وقعه براعته في تصيّد المواقف المشاكلة للحياة وإدارة الحوار بعفوية تقرّبه مما يقوم في الحياة من تفاعل إنساني بين الشخصيات المتحاورة، ويعكس طبقات متنوعة من الوعي لدى الأفراد . إضافة إلى عنصر التحليل، كتلك المقارنة التي عقدها حول ما يعتمل في نفس والد "كاترينا" من صراع بين رغبته في الثأر لمقتل أخيه، والاستجابة لعقله في إرجاء الثأر إلى ما بعد جنى محصوله من القمح :

(لقد بذر ما عنده من القمح، لكنه لم يبذر بعد دمه هذا بحسب قانون الثأر، كانت ساقية الدم هذه أغلى عنده من المحصول الذهبي، ولكن بينَ الدم والقمح، اختار القمح في حين اختار آخرون الدم) .

أبرز ما في الرواية تلك العلاقات الإنسانية الجديدة التي خلقها مجتمع الثورة بين الناس . فقد خرجوا من كل ما كان ينغّص حياتهم ويحدها ويحدّ من إنسانيتهم من أعراف وتقاليد جامدة إلى حياة ملؤها الانطلاق والتحرر، كما أحدث التغيير هزة في أعماقهم .

الشيخ الذي لازم بندقيته في مرحلة النضال في وجه الاحتلال الإيطالي، أصبح الآن بعد التحرير عضواً فاعلاً في المجتمع، وانحسرت تلك الفئات التقليدية المسيطرة، ومنها طبقة الملاّك والمتنفذين الذين هالهم أن يفلت منهم سيطرتهم على الناس ومنها الحاقدون على الثورة الذين يمثلهم ذلك الرجل المتورم العنق، إذ جاء لينتقم من "كاترينا" فحشد بعض أتباعه ليعبثوا بسكة الحديد، فكان حرس الثورة لهم بالمرصاد .

ومع زوال النظام الاشتراكي من ألبانيا ، ربما يتساءل المرء (هل سيسقط هذا اللون من الأدب الملتزم .. ؟؟)

وما الفائدة من رواية تتحدث عن مرحلة طواها الزمن..؟؟

الجواب: أن النظام يزول لكن قيمه، مهما كان تظل راسخة في حياة الأمة، فالمجتمع الألباني مرّ بتجربة الاشتراكية، وذاق حلوها ومرّها، لكن أثرها يظل راسخاً مادام الشعب مستمراُ في الوجود فما من نظام إلا ويستند في مرجعيته إلى مجموعة من القيم والشعارات الإنسانية التي يدافع عنها وما فيها بصيص أمل في التغيير والتقدم. سوءاً كان

على صواب أم على خطأ، وهذه القيم التي يلتف حولها الشعب تغدو بمنــزلة المحرّك والمحرض لبناء المستقبل حتى تزول الأنظمة وتبقى ألبانيا والشعب الألباني، ويبقى الناس يتذكرون كاتباً عظيماً مثل "اسماعيل كاداريه" تغنى بأمجادها وانتصاراتها، وزرع في نفوس أبنائها الأمل في تخطّي العقبات، وتجاوز الصعوبات، لتظل راية الوطن مرفوعة خفّاقة .

* * *

الملف H

تحليل رؤية الشعب الألباني

ليس من اليسير على القارئ أن يتعامل مع كاتب روائي مثل الكاتب الروائي الألباني (إسماعيل كاداريه) و لاسيما إذا كان قارئاً من النمط الذي لا يُعنى كثيراً بالتحليل، و تهزّه دقائق التعبير، وغاياته الخفية، و إنما يجري وراء الأحداث والوقائع.

مثل هذا القارئ الذي أوجد عالمه الفني في قراءة الروايات البوليسية، أو العاطفية المغرقة بالآهات والدموع، لن يروقه "كاداريه" لأنه أَلِفَ الأدب الرخيص. فيضحي بكل ما هو أصيل وجوهري، في سبيل ما هو عارض وسطحي، مثلما أَلِفت روحه أن تدرج في الوهاد، فلا تطير إلى القمم، ومن يريد أن يستمتع بإبداع (إسماعيل كاداريه)، حين يقرؤه، عليه أن يوطِّن نفسه لمواجهة روائي مثقف وكاتب ذكي يتحدى قارئه، ويعتمد كثيراً على رهافة حسِّه ومواهبه الأدبية، فإن لم يكن يتمتع قارئه بمثل تلك المواهب "الخاصة " فإن سداً يتشكل بين "كاداريه وقارئه ".

وكأن هذا الروائي الساخر الذكي، يعتذر لقرائه الذين يعجزون عن مجاراته في كل صفحة قائلاً : [أنا آسف .. فمن يريد أن يجتاز البحار والمحيطات، يجب أن يعرف المبادئ الأولى للعوم، و إلا فخير له أن يغادر المياه قبل أن يغرق..!]

إن عسْر"كاداريه" ليس من الغموض في كتاباته، بل نقيض ذلك، فإن القارئ يتابعه بيُسر ويصل إلى ما يريد أن يقول له، لكنه إذا لم يكن قارئاً مصقولاً مرهفاً، فإن الفنية الخفية والعوالم المحبوكة، بريشة الفن الأصيل تفـــرُّ منه وتفوته في النهاية، فلا ينال من معالم الجمال في النص الروائي إلا اليسير.

إن جوهر إبداع"كاداريه" يعتمد قدرته على أن ينقل لك أعمق الأفكار، وأبعد النظريات، في بساطة القصاص الشعبي، وبذلك يثقف عقل القارئ.

في أدب "إسماعيل كاداريه" يندمج العام بالخاص، والشخصي بالمطلق، والقومي بالكوني الشامل، والواقعي المحسوس بالمثالي المجرد، واللا معقول بالمعقول، فإذا هو يرسم تلك الحياة، لكنها ليست تلك التي تبصرها العين في إطار المعتاد والمألوف، إنها حياة تشبه ما نرى وما نسلك، وتغايرها إذ أن لها غاياتها المخصوصة، وأهدافها البعيدة الغور، التي لا يقدر على سبرها، إلا من أوتوا نفاذ الرؤية وعمق التحليل وروعة الحدس.

*   *   *

في رواية (الملف H) نلاحظ أن الكاتب "إسماعيل كاداريه". اعتمد على واقعة بسيطة قام بها عالمان ايرلنديان لألبانيا، لدارسة الملحمة الألبانية، وبيان علاقتها بالملحمة اليونانية وصلتها بالتراث الهوميري، فيبني عالماً غنياً من الواقع والخيال، فإذا تلك الحادثة الأولية تعكس بريشته تاريخ شعب، وفلسفة فن، وتحليلاً اجتماعياً لروح الشعب الألباني، الذي عبّر عن آلامه وآماله بالشعر الملحمي، ومازال إلى يومنا ينتج مادة شعرية مماثلة لشعر هوميروس.

إن وقائع الحياة المأساوية للشعب الألباني تتجمد وتتجمع كالبذرة تحت الثلج، ثم تنتشُ شعراً يتفجر كآلاف النجوم المنبثقة من مجرّة واجهها حدث كوني، وما يزال هذا المعمل الشعري يمارس نتاجه حتى عصرنا عصر موت الملحمة، وتلاشي البطولات الملحمية، إلا أن قوى الشرّ التي لاتعترف لهذا الشعب الصغير بأي فضل تجهد أن تجرده من كل إبداع، ولا تعترف له بأي إسهام.

إلا أن روح هذا الشعب الملحمية قادرة على أن تصنع البطولات، وتخلّد أعمالها بالملاحم التي يرويها منشدون عميان أو صمّ ضحوا بسمعهم وبصرهم، ليخلدوا بالغناء مآثر الأجداد.

الحادثة الأولى للرواية عند "إسماعيل كاداريه"، هي مدخل لعالم غنّي بالتصورات، والتحليل العميق، حتى كأن الحياة تتوقف عندها، لتنسج خيوطها الخفية حولها. فإذا القارئ يطلّ على دنيا من ممارسات هذا الشعب، وهو يناهض الاحتلال الإيطالي في رواية (جنرال الجيش الميت) ويمتحن صبره على المحن والخطوب في مواجهة الظلم الاستعماري في

رواية "لجنة الاحتفال" ويعبّر بالشعر الملحمي عن أصالته في رواية "الملف هـ" وقدرته على تخليد مأساته بالكلمة المروية يرددها الجيل بعد الجيل، فيضيف إليها، أو يحذف ويبدل حسب أحوال حياته المتجددة .

وتظل حقيقة وجوده كشعب راسخ هي الحقيقة الخالدة، التي تتحطم على صخرتها كل محاولات الترهيب التي استهدفته. يصورها الكاتب "كاداريه" بأسلوبه الساخر فيُشعر القارئ خلال متابعته أن "كاداريه" يضحك بدموعه، ويرسم صور التهكم التي يبدعها بدم قلبه.

* * *

الحصن ...!!

رواية من التاريخ الألباني

عندما ظهرت رواية "جنرال الجيش الميت" كشفت عن الموهبة الفنية والأصيلة التي يتمتع بها الكاتب "إسماعيل كاداريه" من خلال الكوابيس المروعة، وعبر شدائد الذل والهوان، يبعث جنرال إيطالي البقية الباقية من جنود موسوليني الذين سقطوا في أثناء الحرب الأخيرة، ومن الأرض الألبانية تهب رياح فاجعة غريبة، وتزحف سحب غم ثقيل لا يجد السبيل إلى الفكاك منه.

أما في رواية (الحصن)، فنجد أنفسنا في قرن آخر "الخامس عشر" وفي حرب أخرى، مع جنرال آخر" تركي" بيد أنه يُعاني الغم الثقيل نفسه. الإمبراطورية العثمانية تبلغ أوج سلطانها، قبائلها تتدفع في أرجاء أوربا، ويبدو كأن أحداً أو شيئاً يعترض مسيرتها الغاشمة تلك نحو الغرب. ولم يعد ثمة بين الأدرياتيك وهذا العملاق غير بلد صغير (ألبانيا)، فإذا تلقى "هذا البلد" الإنذار بالاستسلام، كان الردّ عليه ضد كل منطق.. كان الرد تحدياً صارخاً جاء على لسان كبير القوم القائد (جورج كاستريوت)، هذا الرجل الذي لا يلبث أن يصير خرافة وأسطورة مثيرة

أيضاً. هذا الرجل الذي اشتهر باسم اسكندر بك القائل: (لقد وضَعَنا القدرُ على مفترق الطرق: طريق الخضوع السهلة، من جهة، وطريق المعركة الوعرة، ولقد اخترنا الثانية!).

الصراع لا سبيل إلى اجتنابه، صراع رهيب، لا هوادة فيه ولا رحمة، غير متكافئ على الإطلاق، هذا (تورصون باشا) يعسكر تحت أسوار قلعة (كرويا)، بل الحصن الأثري حيث تأوي جماعة (كاستريوت). يعسكر الباشا على رأس جيش غزا لتوّه جزءاً من العالم التوسعي، مجهز بأحدث الأعتدة. حجارة (كرويا) العتيقة ليس لها إلا أن تزن ثقلاً في المعركة، وإنما يجب الاعتماد على الرجال الذين تؤويهم، حتى ولو لم يتعدوا مئة مدافع، وعلى ارتباطهم الوثيق بالبلد نفسه، وعلى هذا الشعور الذي يجدونه في أنفسهم بالحاجة إلى الحرية، الشعور الذي يـــبلغ لديهم درجة الوحشية، وإنما يجب التهويل، فوق كل شيء على (اسكندر بك) وهذا أمر لا يفوت الباشا اللبيب، أمر منذ وصوله. وكما حدث لكثيرين من قبله ومن بعده، فهو لم يستطع أن يتفادى الوقوع في براثن هذا الأسى، هذا الغم الثقيل، تزحف إليه سخية من هذه الأرض الألبانية. إنه يشعر شعوراً عميقاً بالعداء تكنّه له بإصرار الكائنات والأشياء جميعاً. إنه كشرقي يتحسس الإشارات، ويتعرف دلالاتها، وإن دلالاتها لمشؤومة وعابسة كأسوار القلعة المتمردة، المستعصية،كهذا الطائر الأسود المشؤوم الذي يرفع رأسه بالنذير على علم خصمه، إن ضباب الصباح وهذه الصخور، وظلال الجبال نفسها، التي لم يَسَعْ ولا يَسَعُ أحداً غير الشياطين أنفسها تسلقها، إنها لغريبة، ملغزة هذه الأرض!

أتدرك ما أعنيه ؟ حتى الرائحة المنبعثة منها هي شيء مختلف.. لا بدّ أن القمح ينبت فيها، كما ينبت في كل مكان.. ولكني لا أكاد أعرف لماذا لا تدفئ قلبي. ولماذا أشعر ببرودة تبثها في صدري !

أمر آخر لا يفوّت الباشا اللبيب : ذلك أن الجنرالات المغلوبين لم يكونوا في ذلك العهد ليحتفظوا برؤوسهم، طويلاً على أكتافهم. إن قدَرَه ليلعب لعبته الحاسمة في هذا المعسكر الواسع، الذي لن يلبث أن يشبه اسفنجة هائلة قوامها العرق والدم، وها هي ذي الحملات العنيفة والمعارك الضاربة تتعاقب بلا هوادة .. والقلعة صامدة أبداً، بل لا يزال ثمة بارقة أمل... لقد أمكن حبس الماء عن القلعة.. وتستمر الهجمات أعنف وأضرى في كل مرة..، ولكن، وذات صباح، وبدلاً من أن يستيقظ على رنين الأجراس المألوفة، ها هو ذا الباشا يسمع قرع الطبول.. وها هو ذا الماء، ها هي ذي القوة تعود من جديد إلى أولئك المحاصرين في القلعة.

القلعة إذاً، لن تستسلم، لن تسقط.. فإذا كان لايريد لنجمه أن يغوص وإلى الأبد، في وحل هذا الخريف الألباني المشؤوم، فليطفئه بنفسه .. ويتناول الباشا السم، ويضع النهاية بنفسه.. أما مدينة (كرويا)، فستظل صامدة طويلاً، ولأربع وعشرين سنة أخرى، مادام (اسكندر بك) على قيد الحياة .. إنها ستلحق أنكر هزيمتين بأمجاد سلطانين من سلاطين الإمبراطورية العثمانية - مراد، ومحمد فاتح القسطنطينية.

هذه هي لحمة هذه الرواية، بل هذه التاريخية، بما تتسم به من واقعية دقيقة وقاسية معاً، واقعية متوترة توتر أغشية هذه الطبول التي يحملها الأتراك، والتي صنعوها من جلود أعدائهم. هذه الطبول التي ما

ينفكون يقرعونها، والتي مانزال أصداؤها تُرسل النذر، وتملأ الفضاء ذعراً وهولاً، إن رائحة القطران يغلي، واللحوم البشرية تتقدد، لتفوح من كل كلمة ! بل إن رائحة الدم، يتخثر تحت شمس الهاجرة، لتبعث على التقزز. وعلى هذا كله، فإن وقائع الرواية إنما تعتمد على وثائق معتبرة، جديرة بأن تستدعي اهتمام كل مؤرخ مدقق. إن رواية كهذه إنما تكتسب قيمتها، في الواقع، وقبل كل شيء من غنى هذه الرموز التي يستفيد منها (كاداريه)، وهو الشاعر، الأصيل، بيسر وحذق مثيرين. إن قراءة هذه الرواية تعيد إلى الذهن ملحمة طروادة، وتذكّر في الوقت نفسه بالفيتنام !.

وها هي ذي، بعد موت الباشا، في العربة المتأرجحة التي كانت تعود بحرية إلى الأناضول. امرأة تُسقط ولداً كانت حملت به في أثناء الحصار، وكان المفروض أن يحمل هذا الولد اسمه، اسم الباشا، وسلاحه (الياتاغان)[1] وعلى هذا النحو، أُسقطت كل المطامع لإخضاع الباشا، في متاهات الزمن، وإنه للبعد الوحيد الذي يتفق وهذا الكيان، بل هذا

الوجود، لهذا البلد المنفرد، نعم، على هذا النحو باءت بالهزيمة كل الحملات الدموية التي شنتها المطامع على هذا المعقل، ذي الألفين، بدءاً من حملات الرومان، وعبر حملات النازيين.

إن موضوع الرواية الحقيقي هو هذا : ألبانيا كل زمان، وصلاتها بالعالم شتائم تصدر عن نفس غاضبة، ناقمة، منفعلة، إن ما في الرواية لهو الحقيقة المجردة معروضة بكل برود، حقيقة لا سبيل إلى نكرانها، أهي بلد مغلق، ألبانيا هذه؟ - ربما، ولكن لماذا ؟ وممن ؟ ألم يكن هذا

---

(1) الياتاغان: سلاح معقوف يؤول أمره إلى الصدأ بتآكله.

البلد محاصراً أبداً، عسكرياً وثقافياً واقتصادياً ؟ وهل مضى أكثر من عشرين عاماً منذ أصبح في استطاعة الألبانيين أخيراً، أن يسددوا أرقامهم، أن يرضوا رغبتهم في المعرفة، أن يأملوا في أن يعيشوا أكثر من ثلاثين عاماً... إلا أنه عندما يدرك أحد كيف يبقى ؟ كيف يحافظ على أصالته، كيف يحافظ على لغته؟ وهويته، بعد عشرين قرناً من أسوأ ما تعاني الأمم من الصروف، وعندما يكون في إمكانه أن يحقق ذلك، متحدياً أكبر القوى. ثم عندما يلازم هذا الإنسان الشعور بأن الأخطار ما تزال رغم كل شيء، وبعد كل شيء، محدقة به فإنه لابدّ له من التزام المتاريس .. فهذا ما يجب أن يقرأ بين سطور هذا الأثر، وهو بالذات ما يجعل من العبث أن نحاول تصنيفه في إحدى فئات المؤلفات المتعارف عليها، إن هذه الرواية هي " ألبانيا"، إلا أن إحدى خصائص الأدب الألباني الجوهرية اليوم وأمس أيضاً، بل وإحدى غاياته الأساسية، هي أن يكون التعبير الحقيقي عن الشعور الشعبي، أن يكون صوته .. هذا الصوت الندي طالما ضاع في صحراء الشعوب! ولقد كان في الحلق صوتاً خافتاً هزيلاً فيما مضى، ولقد كان التظاهر بعدم سماعه، وخاصة في المجامع الدولية، شيئاً يسيراً حقاً .. بَيْدَ أن هذا الصوت قد اشتد وعلا شيئاً فشيئاً بأقواله، وهو إنما بلغ مبلغه هذا من خلال معاناته الطويلة للمحن، ومعاناته للحقيقة القاسية. إنه بالأحرى، قد بدأ يرتفع فوق ما أرادت له الغوغائية!.

* * *

لجنة الاحتفال

تجسيد النضال الوطني

من المرجّح أن اسم الأديب الألباني "إسماعيل كاداريه" الشاعر والروائي والناقد الألباني أصبح اليوم معروفاً لدى المثقفين المطلعين في الوطن العربي، وقد نقلتُ رواياته: (جنرال الجيش الميت – الحصن - العرس) وأشعاره إلى اللغة العربية، وحازت إعجاب القارئ العربي، ذلك أن "إسماعيل كاداريه" أديب إنساني يتجاوز أدبه الطابع المحلي والقومي المتخصص لوطنه إلى آفاق أرحب يجد فيها المثقف جوانب من حياته وقضايا بلده، فالمشكلات المتعلقة بالتحرير الوطني التي طرحها تشبه التحرير الوطني في العالم، وأن نضال الجماهير طلباً للحرية هو في جوهره واحد، والمستعمرون والمستبدون في كل مكان في العالم هم من طينة واحدة، فمذبحة بلدة "ن" الألبانية التي يصورها في قصة "لجنة الاحتفال" لا تختلف في ملابساتها وخيوط المؤامرة فيها عن أي مجزرة ارتكبت في العالم وفي الوطن العربي أيام الاستبداد والاستعمار الغربي مهما تباينت أساليب التخطيط والتنفيذ .

على أن ما يمتع القارئ حقاً في أدب" إسماعيل كاداريه" روحه الساخرة التي تذكرنا بفولتير الفرنسي والجاحظ العربي، فهو أبرع مَنْ رَسَمَ مأساة شعبه الألباني في مواجهة الاستبداد والاستعمار بابتسامة تقطر مرارة وتستدر الدمع من ثنايا التهكم، وهو قادر على أن يُقيم مفارقات عجيبة لا تخطر في البال بين وجهي الحياة الإنسانية المتقابلين: الألم والأمل معتمداً جدلية الأضداد التي يجمعها ببراعة في موقف واحد، فلا يعرف قارئه أيضحك مما يعرضه له أم يبكي، وترتسم على شفتيه ابتسامة هي أقرب إلى التقطيب والعبوس منها إلى الفرح والانشراح، ويخرج من قصصه ورواياته بتأثير ميلو دراميته العجيبة بانطباع مؤداه أن الحياة ليست فرحاً كلها ولا ألماً كلها، إنها مزيج عجيب من المفارقات تستدعي الشفقة على تفاهة الفئة الظالمة لغرورها وسخفها وجهلها. مثلما تستدعي التعاطف مع المستضعفين المسحوقين الذين يصنعون قدرهم في الحياة الحرة الكريمة بالتحدي والمقاومة .

و" إسماعيل كاداريه" كاتب واقعي ملتزم بقضايا شعبه والشعوب الأخرى، مدافع عن حقها المشروع في ممارسة صنوف القهر والإذلال الذي تتعرض له، ومع أنه يعتمد أسلوب الواقعية التسجيلية، ويعتمد الوثائق والمادة التاريخية في كتاباته، إلا أنه يتمتع بخيال خلّاق يضفي على الواقع حياة، ويؤلف بين تفاصيله في وحدة منتظمة مبتكرة، حتى ليتوهم المرء أن ما ابتكرته مخيلته المبدعة هو من حقائق الحياة، أو يحار هل ما يصنعه ويقدمه حقاً هو من التاريخ الحقيقي أو من بنات خياله المحلق وسواء أكان ما يقدمه من الحقيقة أم الخيال فإنه يستغله أروع استغلال للنقد الساخر اللاذع الذي يفضح ممارسات القوى العالمية

الغاشمة، ووقاحتها السافرة في ارتكاب المظالم تحت ستار من المشروعية الزائفة أو الإخراج المضلّل.

والأديب إسماعيل كاداريه يفرّق دائماً في كتاباته بين أجهزة القمع الأساسية وأدواته المسخرة المسيّرة، فهو يفرق بين المخططين للمآسي الإنسانية وصنائعهم الذين ينفذون ما يوكل إليهم من مهمات بدافع الارتزاق وقد ماتت ضمائرهم، ولديه أيضاً نمطان من الشخصيات في رواياته.

ومما يستدعي الغرابة أنه يصور العملاء وهم أكثر التزاماً بممارسة الظلم من سادتهم، لأن عقدة الخوف ونزوع الطمع في نفوسهم قد شلّت لديهم أي إحساس بالذنب، وكثيراً ما كانوا ضحية للظلم الذي هم سدنته، لأن تلك الآلة العجيبة التي تجترح الاضطهاد قد تتحول إلى ذاتها لتأكل أعضاءها كما تلتهم الآخرين .

تلك كانت نهاية ذلك الحشد من العملاء والمرتزقين الذين خططوا ودبروا مذبحة بلدة "ن" الألبانية بتدبير من السلطان محمود الثاني، وذهب ضحيتها صفوة زعماء ألبانيا المناهضين للحكم العثماني، وهي مذبحة لا تقل إيلاماً وحدّة عن أي مذبحة ارتكبتها القوات الاستعمارية في العالم.. لقد استهدفت مذبحة بلدة "ن" لتصفية المقاومة الوطنية للشعب الألباني بالقضاء على قادتها .. وهكذا يحرص إسماعيل كاداريه في كتاباته على إظهار روح الشعب الألباني من خلال عاداته وتقاليده الوطنية وملابسه التراثية، وهو يعرف كيف يستغل تلك الرموز الشعبية، ويوجّهها لترسيخ الشعور القومي لدى أبناء وطنه. على أن تلك الرموز الوطنية يتسع مغزاها حين يمرّ بها القارئ فتغدو رمزاً لكل مقاومة ..

لنتأمل تلك السخرية المبطنة التي وردت في نص التقرير الذي رفعه "مهر دار باشا" منفذ المجزرة إلى السلطان بعد وقوعها، وفيها يتحدث عن ملابس وثياب الألبانيين وهي رموز المقاومة الوطنية ودورها في تضليل الجنود العثمانيين. (يضاف إلى ذلك أن قسماً من خسائرنا، كان يعزى إلى ألبستهم وألوانها الشيطانية المبرقشة البرّاقة، ولا سيما اللون الأحمر فوق الأبيض، فكان رجالنا لا يميزون بين مَنْ سقط منهم جريحاً، وتلطخت ثيابه بالدم، ومَنْ لم يمت ممن كانت جراحه مميتة. فكان جنودنا يصوبون عبثاً على الأموات منهم. وفي الوقت ذاته يصابون على حين غرة من الآخرين الجرحى ولون ثيابهم القرمزية) ولا يتوقف الكاتب إسماعيل كاداريه عنـــد سياسة السلاطين الميكيافيلية اللا أخلاقية، فيفضحها ويندد بمظاهر الاستغلال الجشع الذي يتجلّى في الحفلات الباذخة التي تقيمها السلطة، وما يُقدم فيها من أصناف اللذائذ والمشروبات في صحاف من الذهب والفضة في حين تعاني الشعوب المغلوبة على أمرها تحت ظل الدولة العلية من صنوف الجوع والمرض والبؤس.

فيبرز من خلال وصفه الساخر للمآدب والحفلات تناقضات المجتمع الرأسمالي المتفسخ الذي يحمل بذور انهياره في كيانه الطبقي. الكاتب إسماعيل كاداريه يقدم نفسه بنفسه حين نقرأ رواياته ولابد للقارئ العربي من الإطلاع على تجارب الشعوب المكافحة الأدبية، وبخاصة التي تجسَّد نضالها الوطني، فإن ذلك يفتح أمام الأدباء دروباً جديدة في التصوير والتخيّل، ويمدهم بأساليب جديدة في تناول الموضوعات القومية والوطنية، وهي مَعين لا ينضب للعطاء والإبداع الأدبي ...

قصة مدينة الحجر

ملامح من حياة مدينة "جيروكاسترا" التاريخية

لم تكن رواية "مدينة الحجر Kronike me Gur" إلا امتداداً لأدب الكاتب الألباني"إسماعيل كاداريه" الملحمي الذي صور فيه عبر رواياته السابقة وقصصه حياة الشعب الألباني، في تطلعه إلى الحرية، وبحثه عن الهوية القومية، وإذا كان في قصة (جنرال الجيش الميت) قد صوّر نضال الشعب الألباني في مواجهة الغزو الإيطالي، وفي أكثر من قصة له تناول المقاومة الألبانية الاحتلال العثماني، فإنه في هذه القصة يختار مرحلة حاسمة من تاريخ ألبانيا إبان الحرب العالمية الثانية، حين تناوب على احتلالها كل من الطليان الموالين للنازية، واليونانيون الموالون للحلفاء، ولم يكن يتعدى ذلك الاحتلال أحياناً أسبوعاً أو أياماً ليحل محله الطرف الآخر، والشعب الألباني ممزق بين طرفي الكمّاشة، يعاني الجوع والمرض والفقر، لكنه لم يكن مستسلماً، فقد أفرز الصراع الدامي بين الطرفين المتحاربين المقاومة الوطنية التي استطاعت في آخر المطاف أن تقضي على أعداء الداخل والخارج، وتطهر البلاد من الغرباء والعملاء، إلا أن ذلك التطهير لم يخل من العنف وتجن فرضاهما منطق الثورة

المتطرفة التي تخضع قراراتها للأهواء الذاتية، وإن كانت تحاول ضبط الأمور بالحزم. لقد سجل "كاداريه" حياة مدينة (جيروكاسترا Gjirokastra) الألبانية آثر أن يسميها (مدينة الحجر) لأن تاريخها مرتسم على مبانيها التي يحمل كل حجر فيها ذكرى الهزات الأرضية أو الكوارث البشرية، كانت مدينة عجيبة تبدو مثل كائن من كائنات ما قبل التاريخ، تستقر فوق سفح الجبل، وقد بدا كل شيء فيها عتيقاً يفصح عن تاريخه وأصالته. وإذا كانت تحافظ بمشقة على الحياة البشرية في أعضائها وتحت درعها الحجرية، فإنها لم تكن أقل حرصاً على إصابة هذه الحياة بكثير من الآلام والخدوش والجراح، وكان ذلك طبيعياً لأنها مدينة من الحجر ملامستها قاسية وباردة.

ليس من السهل أن يكون الإنسان صبياً في هذه المدينة، ذلك أن قسوتها تصادر أحلامه وبراءته، هكذا يصور "كاداريه" قسوتها من خلال ترجمة حياة صبي صغير عاش فيها، وسجل على صورة اعترافات أحلامه وآماله، وصوّر المآسي التي ارتسمت في مخيلته زمن الحرب وقبلها. ولعل من المرجح أنه يصور في هذه الرواية صوراً من حياته يوم كان طفلاً. يرجح ذلك صدق الاعترافات وحرارتها وانطباقها على طبيعة التخيل والتفكير لدى الأطفال عموماً، من ذلك "صورة قطرات المطر وهي تنزلق على السطوح ثم تهبط لتستقر في صهريج بيتنا الكبير، حيث تنتهي حياتها الحرة، وفي الخزان المظلم الأصم كان عليها أن تتذكر بحزن الفضاءات السماوية التي لن تراها مجدداً، والآفاق التي تمزقها البروق"، وواضح أن الكاتب يستعير حكاية قطرة المطر للتعبير عن خزان أكبر يُسجن فيه الشعب وتُصادر حريته، إن قطرات المطر

تتجمع ليرتفع منسوبها في الخزان فتفيض عن استيعابه، وتهدد البيت بالغرق وهذا شأن كل ضغط على الشعب فإنه يولد الانفجار. من خلال الوصف الخارجي للمدينة، والرموز التي يعبر عنها والذي يتعامد مع التحليل الدقيق لتطلعات الصبي الذي يعيش في كنف أسرة شعبية في حيٍّ متواضع من أحياء المدينة. استطاع " كاداريه " تقديم صورة مصغرة للوطن كله. أحلام أهله وتطلعاتهم إلى الحرية، معاناتهم والثمن الذي دفعوه، معتقداتهم الساذجة والمؤثرات السحرية والغيبية التي تكبل وعيهم، ومع ذلك فإن وراء هذه القوقعة الحجرية القاسية تنبض الحياة في المدينة وما يساورها من أحلام وحب وكراهية ودفء.

تدور أحداث الرواية في مدينة "جيروكاسترا" مسقط رأس "إسماعيل كاداريه" نفسه، حيث عاش الطفل بطل القصة في كنف أسرة تتمتع بالوجاهة وتسكن في البيت الكبير، وهو المسرح المكاني لأغلب فصول الرواية باستثناء تنقلات الأسرة بعد الحرب إلى قلعة المدينة، ورحلات الطفل المتكررة إلى بيت جده الريفي، ثم الهجرة الجماعية لسكان المدينة بعد اجتياحها زمن الحرب، كان بيتاً هادئاً كأنه عقد معاهدة سلام مؤقتة بينه وبين الجبل والنهر والجسر والسيول، حيث درج الصبي في حضن أمه، وشهد زيارات نسوة الحي لها، حيث يتناقلن أخبار الناس ويفضحن أسرار البيوت ، كانت العجائز متحجرات وبعضهن ما زلن متصابيات يغالبن الكبر، كن يستطلعن المستقبل بعد شرب القهوة، ويتحدثن عن أساليب من السحر تمارسها ساحرة مجهولة تنذر الحيّ بالشرِّ، فيتشبع الأطفال بهذه المعتقدات، يبحثون في لعبهم بالحي عن كرة السحر التي وضعتها يد آثمة في ركن من أركان الحي

لتحمل الأذى إلى أهلها، ولم تكن حياة الطفل في ظل الاحتلال الإيطالي تخلو من المغامرات، كزيارة المسلح الذي يرمز إلى الحرب، أو سماع الأنباء الهامة من النساء ومنها إطلاق النار على ملك إيطاليا في (تيرانا) وشنق صاحب المحاولة وهو شاب في السابعة عشر من عمره، أو يراقبون القرويين وهم يعودون إلى قراهم حيث " تسود الطريق الكبرى من المدينة بسبب لون ثيابهم الواسعة في طريق العودة إلى قراهم".

لم يكن الطفل يدرك معنى الاحتلال، ما دامت أحجار المدينة وأبنيتها لم تتغير ومادام له الأب نفسه والأم نفسها، وحين سأل صديقه "جعفر" عن معنى الاحتلال أجابه:

"ليس في إمكانك أن تفهم معنى المدينة الحرة، لأنك تكبر في العبودية".

على أن " كاداريه " يقطع سرده للأحداث التي مرت في حياة الطفل الصغير بإضافة تقنيات حديثة إلى النص، فيضيف مقاطع إخبارية ذات دلالة اجتماعية وسياسية هامة ورموزاً تساعد في رسم الواقع والتعبير عن الروح الجماعية للشعب ممثلة بعاداته وتقاليده ومعتقداته وأحلامه، مستعيراً من عالم النفس "يونغ" نظريته في التحليل النفسي، (كانت أعمال السحر قد انتشرت في المدينة على أيدٍ خفية تضع أشياء مؤذية في كل مكان، على عتبات الأبواب وخلف الجدران وفوق السطوح، أشياء ملفوفة في قصاصات الورق أو أسمال قذرة من القماش.. وكانت قلامات الأظفار في المعتقدات الشعبية من أخطر المواد التي تدخل في صنع الكرات السحرية المؤذية، ولابد من استشارة العجائز الطاعنات في السن للتخلص من أذى السحر، فأظهرن أن أعماله تظهر قبل الأحداث الكبرى كالحروب نذيراً لسوء الطالع، ولابد من أن يحمي الناس أنفسهم مما يحمله لهم

المستقبل، بعد أن بدا أن المدينة أصيبت بما يشبه الحمى. كان واضحاً أن مصلحة الرجعية تروج الأفكار الأسطورية التي تلهي الناس عن واقعهم.

على أن الصورة القاتمة لجهل الجماهير، وإغراقها في الخرافة لم تكن تمنع المدينة من أن تفرز صنوفاً من الشبان الواعين المتحررين من الجهل، "جعفر" الذي طرد من الثانوية لاشتراكه في الاعتداء على مدرس إيطالي، ويقود في المستقبل فصيلة من فصائل المقاومة، و"عيسى" الشاب الهادئ الذي يخفي وراء زجاجة نظارته تطلعات قوية إلى الحرية لذلك كانت العجائز تتوجس الشر والسحر من نظارته، هؤلاء شاركوا في تحطيم كرة السحر التي وجدوها في الحي (رمز الاحتلال) فأحرقوها وبالوا عليها أطفالاً، وسيكونون أبطال المقاومة عندما يكبرون، وبالمقابل نجد في الريف شخصيات حكيمة صقلتها التجارب، مثل جد الطفل "كاداريه" لأمه، وكان يسكن وأسرته في قرية مجاورة، ويدمن على قراءة الكتب التي تبدو حروفها كدروب النَّمل، والمدفعي العجوز "عبده بابارامو" الذي اكتسب خبرته الحربية من خدمته العسكرية، إضافة إلى "مرغريت" الفتاة المتزوجة التي تفتح عليها حب الطفل المراهق. و"سوزان" الطفلة البريئة التي أحبها. ومعلم القرية الذي وصفته العجائز بأنه يمارس السحر، يفسد عقول الأطفال بالتعليم الذي يضر أكثر مما ينفع.

كانت "الديكة" التي تذبح يستغل هيكلها العظمي لقراءة طالع المدينة، وهي تنبئ بمصير أسود ينتظرها، إن ألبانيا أصابتها الدهشة والاستغراب دون أن تجني ذنباً، تستعد لاستقبال غارات المتحاربين والطامعين باحتلالها. كان لابد من إخلاء البيوت والالتجاء إلى الأقبية، وسرت الشائعة تتحدث عن خطر روسيا "جوزيف ستالين" على الطليان،

وشرع في إقامة مطار حربي، وفرض نظام التعتيم الذي قوبل بالاستهتار، ونشطت زيارات العجائز وأحاديثهن.

بدأ القصف المعادي يتوالى على المدينة، ولم تعد الأقبية تفي بالغرض إلا الملائم منها، وحاول "عبدول" إسقاط طائرة بمدفعه العتيق فلم يوفق، وأحبط آمال الناس بالمقاومة ولم تكن بطاريات المدفعية التي نصبت أكثر جدوى من المدفع العتيق، وبدا أن العالم سيتحول إلى مسلخ وبرك من الدم، كان الناس يحتمون ببيت الأسرة الكبير ويلجؤون إلى قبوه الواسع، وفي هذا القبو ضبط "عاكف" ابنته في موقف مشين مع حبيبها أثناء الغارة، فكان جزاءها القتل .. بعد أن جرها من شعرها إلى مكان مجهول، ربما كان جسدها يرتاح الآن في بئر أو مخزن للماء، ولم تنقطع أحاديث العجائز في الأقبية.

وهُزمت اليونان وبولونيا، وغصت الطرق باللاجئين، ولم ينقطع سيل قذائف الطائرات الإنكليزية وأخليت المدينة، ولجأ الناس إلى القلعة إلا الشيوخ والعجائز اللواتي آثرن البقاء في المنازل والموت بصمت، ومنهن جدة الطفل لأبيه، وكانت الحياة في القلعة تذكر بظلمات العصر الوسيط، وصدرت أحكام الإعدام بحق المناهضين للاحتلال الإيطالي، وكان لا بد من أن يقوم رجال المقاومة بتصفية العملاء، والتحقت خالة الطفل بالثوار، وقتل ابن "عبده بابارامو" وبرز اسم "أنور خوجا" زعيماً لحركة المقاومة، وكانت نساء الطبقة الغنية مشغولات بمباذلهن، وآخر أنواع البدع في الثياب المستوردة من إيطاليا، وقام "جعفر" بتصفية "آزم" عمه لأنه خان وطنه، وبدا أن الثورة لا تساير ولا تهادن.

تكاثفت جموع المهاجرين القادمين من المدينة المهدمة بعد اشتداد القصف، وبدت الحجارة في قتامتها وتشرذمها كالناس " شابة أو عجوزاً، قاسية أو لينة تحت القصف، مصقولة وخشنة، ماكرة وودودة، خائنة لا تثبت في مكانها أو مخلصة لا تبرحه، خرقاء أو مقطبة أو متعجرفة تحلم بأن تكون شواهد للقبور، متواضعة أو متفائلة بلا رجاء، مرصوفة فوق الأرض كأفراد الشعب، غفل حتى نهاية الدهور.

هكذا بدا الحجر معبراً عند " كاداريه " عن روح الشعب وتاريخه، والإهمال الذي يلقاه في كل العصور، والضربات التي يتلقاها بسبب الأطماع البشرية، وذلك هو المغزى من الرواية، كتابة تاريخ الإنسانية المشوّه من خلال تاريخ الشعب الألباني المعذب عبر العصور، المدافع عن حريته، يلتمسها بشتى السبل، وتظل إرادته أقوى من قوة الأقوياء، ضحى بأبنائه على مذبح الحرية، تلك كانت نهاية "عيسى وجعفر" وأقرانهم لكن ألبانيا لم تمت.

في رواية " مدينة الحجر " وضع" كاداريه " تجربته الفنية المتجمعة عبر تجاربه المديدة في الكتابة، فيتجاوز أساليب السرد التقليدي معتمداً ومستعيناً بالوثائق وقصاصات الصحف والمأثورات الشعبية، وأحلام اليقظة والمتداعيات الطفولية اللاواعية لخلق عالم واقعي ينبض بالحياة، ولأول مرة يلج عالم الطفولة فيجعل بطل الرواية طفلاً يطل على العالم بعينين غنيتين بالرؤى والتخيل متخذاً زمن الرواية من الماضي المؤلم الذي ما تزال ذكراه مرتسمة في مخيلة الأطفال تسمح بإيجاد سياق تاريخي واجتماعي يمتزج فيه الواقع بالحلم وتتحرك فيه الشخصيات ثم في انسحاقها الذاتي عن الوعي أو دون وعي، فيسقطون في جحيم المأساة دون أن تكون لهم إرادة فاعلة في

ذلك، إلا أولئك الأبطال الذين رسموا مصيرهم بأنفسهم، على أن بطولتهم الفردية لم تكن إلا بطولة شعب مهدد، وبدا منطق العالم تافهاً وسخيفاً في نظر طفل صغير لم يفهمه. وقد اعتمد "كاداريه" الرؤية الخلفية فانطق الطفل بما يريد أن يقوله وما يجول بخاطره دون إرهاق أو تكلف إلا فيما ندر حينما يفكر الطفل بأمور لا يفكر فيها إلا الكبار. ولم يغفل استخدام أسلوب الرواية المصاحبة حيث يعلق الكاتب بنفسه على تصرفات الأبطال أو يضيف إلى أقوالهم ما يغنيها ويوضحها ويحلها. والرؤية الخارجية التي يبدو فيها الكاتب شاهداً محايداً لا يعرف إلا القليل عما يجري. وهو يعتمد الحوار الداخلي أحياناً فيروي بلسان الطفل ما يعرفه عن نفسه، وكأن الاعترافات حلم يرفض الواقع باستمرار. على أن أهم ما اعتمده الكاتب "إسماعيل كاداريه" إشراكه الأشياء في الرواية وكأنها عناصر أساسية في الوجود تكمل الحياة الإنسانية. فالمدينة ليست كومة الحجارة، إن حجارتها تشبه أفراد ساكنيها وتشاركهم إنسانيتهم، أما أسلوب الكاتب فيعتمد على تلوين العبارة الوضعية بالانفعال والحرارة، والشعور الذاتي، فالوصف عنده ليس مجرد نقل للواقع، إنه مفعم بالحياة والمشاعر، ويكثر من الأحكام القيمة والصور التمثيلية، ومعارضة النص السردي بنصوص خارجة عنه تشكل معه فضاء قصصياً يتجاوز حبكة الرواية إلى عالمها الإنساني المطلق أو يفضح تناقضات المجتمع الإنساني ومنطقه الجائر.

وتستمد الرواية أهميتها من شعور الكاتب بأن عالمنا المعاصر تبلّد إحساسه، وفارقته البراءة والمحبة كما يريد له طفل صغير، وهو يهيب بنا أن نعيد النظر في قلب عالمنا المتحجر ونُجري له عملية تشريحية تُعيد إليه الإيمان بالإنسان والقيم التي كان يحملها ويدافع عنها قبل أن يسقط.

قصر الأحلام

المفارقات الإنسانية المضحكة

يعدُّ الكاتب الألباني "إسماعيل كاداريه" ظاهرة فذة في الأدب العالمي لأنه جمع في رواياته بين الروح الألبانية ذات الطابع الشرقي، والتقنيات الروائية الغربية في إطارها الحديث، مع براعة فائقة في اختيار موضوعات رواياته ومفرادته في الرؤية الفنية التي قربت أسلوبه من الشعر ونظرته القومية من علم النفس في إطار واقعية تنفذ إلى الأعماق الأسطورية.

التاريخ الألباني عند "إسماعيل كاداريه" ملحمة تاريخية تعبّر عن روح الشعب وذكرياته الجماعية، فالماضي الألباني هو الفعل المؤثر والحافز في تكوين إرادة الأمة وخياراتها، وهي ذاكرة صقلتها المحن والمواجهات حين كوّنت ضمير الأمة وإرادتها الصلبة.

مع "إسماعيل كاداريه" نرى الإنسان الألباني في جوهره الثابت غير المتحول، فيعود بنا إلى منابع تلك الروح الألبانية البدائية التي يعد الشعب الألباني اليوم امتداداً لها، لكنها امتداد خلّاق يستعصي على الترويض، وتسقط أمامه كل محاولات الفاتحين لتطويعه، لقد خابت كل

تلك المحاولات أمام ذلك اللاشعور الجمعي الذي تمتلكه الأمة، فهو ينتفض كالمارد في لحظة غير متوقعة ليضرب ضربته الحاسمة.

لم يشأ الكاتب " كاداريه " أن ينحو منحى السرياليين في العودة إلى المنابع الأولى متخلياً عن الوعي الإنساني، بل آثر أن يجعل الواقع الخارجي في حركته الواعية إطاراً لرواياته، لكنه يتخذه وسيلة لغاية أبعد وأسمى، إذ يسخره للكشف عن التراث الإنساني العريق في الشخصية الألبانية، عن الهوية التي تشكلها رموز اللاوعي الجمعي، والتي تتخذ صورها عبر أحلام اليقظة والنوم، وفي الملاحم، والأناشيد، والموسيقى، والأساطير، إنها تفصح عن لاشعور أعلى عده "كارل يونج" متماثلاً لدى الشعوب كلها، ففي هذا المستودع النفسي الجماعي يحمل كل شخص ألباني سمات أجداده وطرق تصورهم منذ الولادة، ويهيئ لفكر الأفراد وسطاً نفسياً خالصاً يسبح فيه، ففي أعماق كل منهم ذكريات الأجداد الماضية. نقائها، ويسعى إلى تجليتها وإبراز دلالتها العظيمة ليقدمها إلى شعبه عاملاً فاعلاً في سلوكهم، يغيبه الوعي الخارجي، وهو لا يكتفي بذلك بل يجعل منها ملحمة إنسانية غنائية بما يوفر لها من لغة نقائها، ويسعى إلى تجليتها وإبراز دلالتها العظيمة ليقدمها إلى شعبه عاملاً فاعلاً في سلوكهم، يغيبه الوعي الخارجي، وهو لا يكتفي بذلك بل يجعل منها ملحمة إنسانية غنائية بما يوفر لها من لغة شعرية خلّاقة، وتحليل عميق، ومفارقات إنسانية مضحكة، يلتبس فيها الجد بالهزل، والواقعي بالمتخيل، وهذا اللاشعور الجمعي الكامن في الأعماق، والمنحدر من الأجداد يبدو على صورة إلحاف قاسٍ لطلب الثأر في رواية: "نيسان المهشم Prilli I thyer " وصموداً لا يعرف التراجع في رواية: "الحصن Kshtjella " وإصراراً على الهدف في

رواية: "من أعاد دورنتين Kush e solli Doruntinen " يبلغ حد المكابرة، وتمسكاً قدسياً بالتراث في رواية: " الملف Dossie H " وروايته: " قصر الأحلام Palla ta anrave" لا تخرج عن هذا الخط الدرامي الذي يردّ الشخصية الألبانية إلى جذورها الأولى تحت تأثير ذلك اللاشعور الجمعي الذي يربط الفرد الألباني بأمته، حيث يكون للأسطورة والملحمة والموسيقى الشعبية الألبانية فعلها المؤثر في سلوك الشخصيات مهما جنح بهم الأمر إلى الخيانة أو تجاوز الانتماء، على أن " كاداريه " لا يستعين بسرد الأحلام فحسب لإبراز ذلك اللاشعور الجمعي بل يسعى إلى ترميزها وتحليلها واستخلاص دلالاتها القومية والاجتماعية، هكذا يبيح لنفسه تخيل مؤسسة رسمية تقيمها الدولة العثمانية التي كانت تحتل منطقة البلقان، هدفها مراقبة أحلام الشعوب الواقعة تحت ظلها، وتفسير هذه الأحلام للوقوف على تطلعات هذه الشعوب إلى الحرية، إنها مؤسسة يسميها "قصر الأحلام" ترد إليها عشرات الآلاف من أحلام الناس، تقوم دوائر مختصة بفرزها وتحليلها، واستخلاص الاتجاهات الخطيرة على الدولة من خلالها، ولابد أن تتحد دائرة "قصر الأحلام" الحلم الأقصى، وهو الحلم الذي يحوي أخطر الرموز التي تهدد أمن الدولة وسلامتها، والمفارقة المضحكة أن هذه الدائرة التي تشبه "إدارة المخابرات" في عصرنا لا تُعنى بالأخبار العادية والتقارير التي تحمل آراء الأفراد في الدولة، وإنما تلتفت إلى ما يبرز من العقل الباطن في الحلم من رموز هي أخطر في نظر الدولة من كلام الناس، وهم في ذروة وعيهم ويقظتهم، وتنقسم هذه الدائرة إلى شعب مختصة أولها دائرة الفرز التي تستبعد الأحلام التي لا خطر فيها، ودائرة التصنيف ثم دائرة التأويل التي يطلب

منها فك رموز الحلم وما فيه من رموز جمعية تنذر بالخطر. في هذه الدائرة يعين "مارك – عالم" ويوحي اسمه المركب بحرص الدولة على تعيين تقنيين في تفسير الأحلام على أسس من العلم. وتشاء المصادفات أن يكون قريباً لأسرة "كوبر يللي" الألبانية العريقة التي خدمت الدولة العثمانية بإخلاص، وكان منها وزراء وأصحاب مناصب، لكن "مارك عالم" يتدرج سريعاً في الترقية حتى يصل في آخر المطاف إلى رتبة معاون مدير لهذه المؤسسة لا لصلته بآل "كوبر يللي" فحسب بل لاكتشافه الحلم الفرد الذي يمثل خطراً على الدولة والسلطان، ولأنه أحسن تأويل رموزه في تقرير رفعه إلى الإدارة، ويستند هذا الحلم إلى أسطورة ألبانية تحدث عنها الكاتب في الجزء الثاني من روايته "من أعاد دورنتين؟" وتذهب هذه الأسطورة إلى أن جسراً ذا ثلاثة أركان بنته أسرة " كوبر يللي " وقتل في مرحلة بنائه أحد أفراد الأسرة لدوافع مجهولة ودفن في قاعدة الجسر، فكأن هذه الأسرة أصبحت رمزاً لبناء ألبانيا، ونسجت حول الأسرة والجسر أناشيد ترددها الأجيال الألبانية حتى يومنا.

ولم يكن من اليسير على هذه الأسرة أن تتخلى عن ألبانيتها على الرغم من ولائها للدولة العثمانية، فظلت تحن إلى جذورها، وجسدت ذلك الحنين بدعوة أربعة من المغنين الألبان للعاصمة ليسمعوا أفرادها تلك الأناشيد باللغة الألبانية، وكان " كورت " وهو خال " مارك عالم " أحد حكام المقاطعات البارزين في الدولة وأكثر أفراد الأسرة حماسة للفكرة.

ويوافق ذلك الاستدعاء ورود حلم إلى شعبة "قصر الأحلام" لأحد التجار يتحدث فيه عن بقايا جسر وآلة موسيقية ألبانية هي "اللاهوتا" وثور هائج، رأى" مارك عالم " في ذلك الحلم رموزاً تشكل خطراً على

الدولة دون أن يربط بين الجسر " كوبري" وأسرة كوبر يللي ورفعه إلى قائده، ولم يخطر بباله أن تفسير الحلم سيجلب الهلاك لخاله ونقمة الدولة على أسرة " كوبر يللي " ويعد ذلك الحلم هو الحلم الأقصى، فتراقب عيون السلطان قصور آل "كوبر يللي" وترصد قدوم المغنين فـتداهم بيت الوزير "كوبر يللي" وتعتقل أخاه "كورت " وتصفيه، وتقتل المنشدين الأربعة الذين رأت في قدومهم تحريكاً للمشاعر القومية الألبانية، وتأكيداً لتفسير الحلم الأقصى، لكن الوزير " كوبر يللي " يستخدم نفوذه، فيطيح بقائد القصر الذي رفع تقرير الحلم الأقصى، أما " مارك – عالم " فقد رقي بسبب إخلاصه إلى منصب مدير إدارة دون أن يعرف خاله الوزير أنه المسبب للكارثة.

تقدم الرواية جملة من المفارقات الإنسانية المضحكة، فبطلها "مارك عالم" شخصية متخيلة يسحقه تمزقه الفكري، وتورطه في الخيانة، وتسيره الأحداث دون أن يكون له علم بالخفايا التي تنسج من حوله، وآل "كوبر يللي" المندفعون بولائهم لذواتهم، لم يستطيعوا أن يتخلوا عن جذورهم الألبانية التي كادت تطيح بهم، لولا براعتهم السياسية ونفوذهم المكتسب عبر خدمتهم الطويلة في الحكم، ويبدو جهاز الدولة العثمانية في آخر مراحلها جهازاً محتضراً مريضاً، فهي تكمّ إرادة الشعوب بشتى الوسائل، وتستخدم أساليب شيطانية في مصادرة أحلام الشعوب، حتى ليغدو الحلم البريء مصدراً لتأويل قد يجر على صاحبه الهلاك، وظهرت أجهزتها الأمنية في الرواية نموذجاً للكبت والقسوة حتى لتخاف تلك الأجهزة نفسها من بطش مترقب، ويريد الكاتب "كاداريه" أن يؤكد أن مصادرة أحلام الشعوب الكامنة في لا وعيهم والمنحدرة من الجذور لا يمكن أن تصادر

مهما حشد لقمعها من قوى، ذلك أن الشعوب قادرة على تحقيق أهدافها حتى بالأساليب غير الشرعية الكامنة بالولاء الكاذب، ويُبرز" كاداريه " الفساد الكامن في أجهزة الدولة والتخبط الذي يتجلى في رؤيتها القاصرة، ومنحها الولاء لعناصر انتهازية، والترقيات لمن لا يستحقونها، أو ينالونها بالخيانة التي لا يمكن أن يركن إلى ولاء عناصرها.

على أن أهم ما يقدمه "كاداريه" في الرواية هو إبراز ذلك اللاشعور الجمعي الكامن لدى الشعوب والذي يشكل سر صمودها الذي لا يقهر، وهو ولاء متحدر من الجذور، رَمَزَ إليه الكاتب بالأناشيد الموروثة والموسيقى الشعبية التي تحمل روح الأمة والأحلام والأساطير التي تشكل إرادتها.

ويمزج "كاداريه" بين الواقعي والمتخيّل، فقصر الأحلام لا يعدو أن يكون صورة متخيلة لمعادل موضوعي واقعي هو إدارة الأمن في الدولة، لكنه يعالج مادة نفسية خالصة تنطلق أساساً من اللاوعي الجمعي، وتستخدم في تحليل المعطيات أدوات عصرية لم تهيئ لها الدولة مختصين في التحليل النفسي للحلم، وتلك المفارقة تثير سخرية الكاتب، فمارك عالم لم يكن مفسراً مختصاً، وإنما كان حامل ثانوية شأنه شأن العناصر التي تعمل في المجالات الأمنية الخطيرة.

تجري أحداث الرواية في شعبة "قصر الأحلام" وقصر الوزير "كوبر يللي" ومنزل "عالم مارك" ويضيف الكاتب إلى هذه الأماكن رقعة البلاد العثمانية كلها حيث يتردد السعاة من أقصى البلاد إلى أقصاها يجمعون أحلام الناس وينقلونها إلى "القصر" لقمعها بعد تفسيرها،

ويروون مفارقات مضحكة عن جمع الأحلام، حيث تأنف خيولهم من متابعة السير بسبب أحلام مزعجة حملها السعاة إلى القصر.

إن الإمبراطورية كلها مكان مجازي وساحة للأحداث الجارية ودلالة على الشخوص الروائية ومكملة للأحداث التي تجري في القصر، "كاداريه" يجيد رسم المكان في الرواية ويذكر أبعاده التفصيلية حتى لكأننا أمام واقع حي غير متخيل، فيقترب بذلك من الكتّاب الواقعيين مسبغاً على المتخيل وجوداً حقيقياً، لكن قصر الأحلام يعدّ المكان الممثل لتجربة عاشها الكاتب في خياله، وهو مكان غير محايد بناه خيال الكاتب ليكون مركز اجتذاب مستمر للقارئ، وبنى تفاصيله حتى غدا تجسيداً للظلم الواقع على الشعوب، وهو يتشابك ويتداخل مع أمكنة أخرى تكمل الصورة أو تحدد حركة البطل كقصر الوزير بيت "مارك عالم"، لكن قصر الأحلام يظل المكان القمعي لأنه ينمّي السخط والكراهية والتمرد لدى البطل، إنه المتاهة التي تبعث الفزع في الروح أمام عالم لا مكان للإنسان الحر فيه، فقد ابتلع "مارك عالم" وأضاعه وأغراه حتى أفقده إنسانيته .

والكاتب "إسماعيل كاداريه" يستخدم الرؤية الخلفية في السرد، فهو الذي يروي سيرة البطل ويعرف تطلعاته و رغباته ويرسم أحواله. أما هيكل الرواية الخارجي فيتألف من فصول تتدرج بحسب توالي زمان الأحداث. والكاتب لا يحدد زمن الخلق، ولا يحدد الزمن الموضوعي الذي تحتله الرواية من بدايتها إلى نهايتها، وإن كنا نقدره بشهور نظراً لسرعة ترقية " مارك عالم " وتوالي الأحداث الدرامية سريعاً. أما الزمن الخارجي للرواية فواضح أنه يقع في فترة انهيار الدولة العثمانية، وقد

يتحدد بالقرائن التاريخية التي تشير إلى تسليم أعلام حقيقيين من أسرة "كوبريللي" مقاليد الحكم.

تتجلى روعة قصر الأحلام في قدرة الكاتب "إسماعيل كاداريه" على التنديد الساخر بأساليب القهر المسلطة على الشعوب، وما يحشده المستبدون المحتلون من وسائل للسيطرة عليها وهي أساليب تتذرع بالعلم الزائف، وإن كانت اليوم تستفيد من معطيات العلم الحقيقي لإسكات كل تطلع للحرية. على أن "كاداريه" لا يفقد الأمل الذي يعلقه على روح الأمة وتراثها المحرك، فهو السلاح الذي لا يقهر، إنه كامن في الأعماق يتمثل في تراثها المنحدر إليها من تجارب الأجداد، ولا يمكن أن تنال منه السلطة.

وقد استطاع "كاداريه" بحسن اختياره موضوع الرواية أن يمزج الكلاسيكي بلون من السريالية المقنّعة التي تعكس القلق والارتياب من خلال براعة تحليل وثائق الأحلام وإبراز المشاعر الجمعية الكامنة، ومحاولة إعطاء النثر القصصي مسحة من الشاعرية، وخصوبة الخيال، والتعبير عن الأمل الإنساني المنتصر في مواجهة العالم الجائر الذي تجرّد من المنطق والمعقول، بهدف تبديل الحياة من خلال رسم عالم شاذ وغير مألوف، ورفض الوضع البشري الظالم والثورة عليه.

*   *   *

من أعاد دورنتين ؟؟؟

مزج الخيال بالواقع

يظل الهاجس الوطني المحور الأساسي الذي تنطلق منه روايات الكاتب الألباني "إسماعيل كاداريه" وقصصه، و"دورنـــتين" فتاة تنتمي إلى أسرة ألبانية قدمت عدداً من الشهداء، فاق ما قدمته الأسر جميعها في حروب المواجهة مع الأعداء، وهي حروب لا تنقطع يذهب فيها الشبان قتلاً، فإن لم يصبهم القتل لحق بهم مرض الطاعون الذي يفتك بالمحاربين من الطرفين، ومع أن الأسرة حريصة ألاّ تزوج بناتها للغرباء غير أن "فالنتين" كانت قد تزوجت شاباً من مقاطعة نائية بالرغم من معارضة أهلها، والغريب أن شقيقها " قسطنطين" كان قـــد أقسم لها أنه سيعيدها إلى حضن الأسرة إذا تعرضت لمتاعب الغربة، لكنه استشهد مع أخوته الثلاثة بعد زواج "فالنتين" ولم تكن الفتاة تعلم نبأ استشهادهم بسبب بعدها، وحين قررت العودة إلى أسرتها بعد أن دمرت الحرب كل شيء، واختطفت زوجها الذي التحق بالجندية، تذكرت وعد أخيها "قسطنطين" وخيّل إليها أنه سيأتي في يوم من الأيام ليعيدها إلى أهلها.

وفي ذات يوم برز أمام بيتها فارس ملفّع بالغبار، يمتطي جواده وخيّل إليها أنه شقيقها قسطنطين، وأنه جاء ينبئها أنه مستعد ليبرّ بقسمه ويعيدها إلى أهلها، لم يكن الفارس أخاها " قسطنطين " في واقع الأمر، لكن عقلها الباطن أسبغ على الرجل صورة الأخ المنقذ، فقد تبين من التحقيق الذي قام به رجال الأمن بعد عودة "دورنتين" أن "قسطنطين" كان قد استشهد قبل عودة الفتاة إلى أهلها، ثم سرت شائعة مفادها أنه لم يمت، وأنه كان متخفياً أو بعث من قبره ليبرّ بقسمه لأخته، وقد سبب ظهوره في صحبة أخته التي أكدت لأمها أن أخاها " قسطنطين " هو الذي رافقها في مسيرة العودة سَبّبَ ذلك صدمة لأمها العجوز التي كانت تعلم أن ولدها قد استشهد، ولم تستطع أن ترى ملامحه حين ودّع أخته عند باب المنزل واختفى، كانت المفاجأة كافية لتصرع الأم الذاهلة فأغمي عليها، أما "دورنتين" فقد هدّها السفر ومشقّة الرحلة فارتمت طريحة الفراش، وحاول رجل الأمن المختص المكلف التحقيق بالشائعة للوصول إلى حقيقة الأمر أن يستجوب المرأتين وتحت إصرار الفتاة أن أخاها الشهيد هو الذي قادها إلى منـــزل الأسرة، أصيب المحقق بالجرح وصمّم أن يحل اللغز الغامض، فتابع التحقيق باحثاً عن أناس شاهدوا الفتاة عائدة وأخاها دون جدوى. واستغلق الأمر حتى كاد المحقق يمنى باليأس، إلى أن تمكن رجاله ذات يوم من القبض على فارس ملفّع بالغبار غريب عن المنطقة، فقاده إلى "ستريس" رجل التحقيق، واعترف بأنه هو الذي أغرى الفتاة بالعودة، واستجاب لرغبتها لأنه أحبها، واستطاع في الطريق أن يتوصل إلى امتلاكها ومواصلتها، إلا أن الفتاة المحرجة أمام أسرتها ادعت أن شقيقها هو الذي أعادها وذهب للالتحاق بالمقاتلين. وهي لا

تدري أنه استشهد، الأمر الذي سبب الصدمة للأم وموتها، ثم لحقت بها ابنتها في اليوم التالي، فقد ماتت بسبب الصراع النفسي الذي تعانيه، وأهوال الرحلة.

وينفذ الكاتب "إسماعيل كاداريه" إلى تعليل موافقة "قسطنطين" على تزويج أخته من غريب، مع أنه كان يحبها، فيفسر هذا الموقف الغريب بأن رغبته في امتلاكها وحرصه على الاستئثار بحبها دون سواه قد دفعه إلى إبعادها كي لا يراها مقترنة بسواه من شبان الضيعة فيتعذب من مرآها كل يوم، ويقوده عقله الباطن إلى الرغبة في ترحيلها لتظل له وحده.

ولا يخفي أن الكاتب " كاداريه " جعل من شخصياته رموزاً لواقع وطنه ألبانيا، التي طمع في امتلاكه الطامعون، فارتمى في أحضان الغريب لكن تاريخ شعبه النضالي الذي ترمز إليه شخصية الأخ " قسطنطين " المتعلق ببلده، والمصر على إنقاذها من المحن يصر كلما تعرض وطنه للخطر أن يبعثه حياً من ظلام القبر، مهما قدم من الشهداء والتضحيات، ولو غيب تحت الثرى، و" كاداريه" يحذر شعبه من صور التحرير المختالة، إذ كثيراً ما يتوهم الشعب أنه يناضل لهدف التحرير السامي، ثم يتبين له أن سعيه لم يكن إلا محاولة يستغلها الغريب ليحقق مآربه وينال من ألبانيا، ويبرز "كاداريه" خطر إقامة علاقات مع الغرباء، لأن ذلك التزاوج والتواصل لا يكون في كثير من الأحيان لمصلحة الوطن والشعب، وخير للوطن أن يطمح إلى صداقات مع القريب التي يرمز إليها بعلاقة الزواج في الرواية، من أن يغامر في التماس بقائه بطموحات بعيدة المدى وكأن "كاداريه" يستشرف الواقع الراهن في الفترة

التي كتب فيها الرواية ويرى مستقبل ألبانيا الذي يتهدده الخطر دائماً من الخارج .. وقد أشار المحقق "ستريس" في ختام الرواية إلى ذلك الخطر الذي يتهدد ألبانيا " بسبب خطورة الوضع في العالم أجمع والخلافات بين الدول الكبرى والأديان، والمؤامرات التي تزدهر في كل مكان، ووضع ألبانيا في وسط هذه القارة التي تعصف بها الأنواء والسيوف الجامحة، والشعب يحاول جاهداً أن يخلق له وسائل جديدة "

في هذه الأحوال المستجدة في زمن التجارب والجرائم والخيانات الشنيعة، يجد الإنسان الألباني نفسه في وضع محرج، فإما أن يزاوج الشر أو يعارضه، فإن زاوجه موافق على ارتداء أقنعة العصر ليضمن لنفسه البقاء وإن عارضه واحتفظ بوجهه اللامتبدل تعرّض لقضية الزمن، ولما كان الشعب الألباني قد صمم بنفسه على بناء مؤسسات لا تقل سمواً عن قَسَمِ "قسطنطين" بإعادة "دورنتين" فإنه بذلك اختار طريقه السليم وبعث ألبانيا من جديد. وقد رمز الكاتب "كاداريه" إلى هذا البعث بخروج "قسطنطين" من قبره ليبرّ بقسمه في إعادة "دورنتين" (الوطن) إلى حضن الأم، لكن هذه العودة تتطلب التضحيات ودماء تقدمها الأجيال.

تُرى هل كان "كاداريه" يتقمص شخصية المحقق "ستريس" الذي قرر بعد أن ألقى كلمته أن يستقيل من عمله الآن (أقواله لا تنسجم مع وظيفته) ؟ فهو يعلن انفصاله عن النظام الذي كان سائداً لمصلحة وطنه. لقد كان "ستريس" يطمح إلى زيجات قريبة لا كزواج "دورنتين" من الغريب. زيجات تتم من داخل العشيرة. كما كانت تتم من قبل، وأسف الناس على زوالها، إن ندم "قسطنطين" على تزويج أخته من الغريب هو الذي بعثه من

قبره، ولعلّ "كاداريه" هنا يثير مشكلة اليقظة القومية وخصوصيتها في مواجهة التنازلات المترتبة على وحدات إيديولوجية إنسانية.

لقد نجح الكاتب "إسماعيل كاداريه" في إقامة لون من الوحدة الخفية بين ماضي الأمة وحاضرها، وهذا الماضي المتمثل بآلاف الضحايا الذين ماتوا في النزاعات والحروب والذين يشكل موتهم جزءاً حياً من حاضر الأمة لا يمكن تجاهله، فإن هؤلاء الموتى المضحين لهم حضورهم المشخّص والحي في الأمة، وتاريخهم يشكل قوة تجدد حياتها وتعيدها إلى المحجة كلما نأت عن جذورها، كان "قسطنطين" يؤمن بالزيجات البعيدة التي تعقد في طرف العالم، وكان يرى أن قلوب الألبانيين فيها من الخصال المكتسبة ما يسعه أن يتحمل محنة الابتعاد والمآسي التي تنجم عنه، لكنه كان على استعداد دائم ليعيد أخته إلى حضن أمها كلما اشتدت المحنة.

لقد رأى بعض الألبانيين في تغريب "دورنتين" (الوطن) خطراً على الوطن نفسه، وكانوا يفضلون قرانات داخلية حرصاً على حماية العشيرة من القلاقل، بينما ذهب آخرون من المتطلعين إلى الوحدات الإنسانية الأكثر بعداً إلى إثبات العكس فهذه القرانات تعفي أهلها من تبعات قرابة الدم، وإن كانت تبعث الشعور بالوحدة والتفرد والألم.

والكاتب "كاداريه" يجسّد الصراعات الداخلية التي أحدثت في ألبانيا جروحاً لا تندمل، صراعات مذهبية وأخرى إيديولوجية أدت إلى تفكك المجتمع، لكن الشعب يملك تاريخاً عريقاً قادراً على إعادة الهوية القومية لأبنائه مهما شطت بهم السبل وتفرقت بهم دروب الخلاف، وهذا التاريخ

الميت هو حي في ضمير الأمة، يبرز الكاتب "كاداريه" دوره من خلال مشهد المقبرة تحت الثلج. كان "ستريس" يشعر بسلام المقبرة لكن كان يلازمه إحساس آخر بأن هذه القبور المغمورة بالثلج تمثل مجتمعاً يربط بين أفراده الحب والاتفاق على التلازم دون فراق، كان مجتمعاً موحداً جمعت أفراده المحنة ووحدتهم في الحياة والممات حتى لم يعد ثمة فرق بينهما، وكأنهم حطموا قوانين الموت للالتقاء مجدداً، وكأن حزن عدم اللقاء هو أحد أعظم الأحزان في هذا العالم السفلي.

وكما جربت "دورنتين" مغامرة الرحيل والعودة، ستجرب ألبانيا مجدداً مغامرة التواصل مع الغرباء دون أن تتبين في غمار هذه التجربة المصير الذي ينتظرها، وستجد في كل زمان من يعيدها إلى عتبة بيتها بعد مغامرتها في التجدد والانطلاق.

وليس مهماً أن يعرف الناس مَنْ ذلك الفارس الذي أعادها فقد يكون ماضيها المجسّد بالشهداء من أبنائها، أو يكون مغامراً يطلب وصالها ويسعى إليه، وتستجيب هي لرغباته تحقيقاً لرغبتها الذاتية في الرجوع إلى جذورها .

وفي إطار حبكة الرواية يمزج "كاداريه" الواقع بالخيال، ويثير إعجاب القارئ بقدرته على التعبير عن أعماق أفكاره وتطلعاته من خلال الرموز التي يعمد إلى تلفيعها بجو من الواقعية تقوم على خلق فضاء قصصي، يتحدد فيه الزمان والمكان تحديداً ينفي المتخيل واللاواقعي ويوهم القارئ أن البناء الروائي هو قطعة حية من الحياة، وفي هذا يكمن سر نجاحه وعظمة إلهامه، إن رواية "من أعاد دورنتين؟" تُعد تلخيصاً لتاريخ

ألبانيا في سعيها الدائب إلى البقاء، عبر صراعات جاذبة تشدها، وتوزع أبنائها ليندفعوا وراء التزامات عقائدية ومذهبية تؤول في نهاية المطاف إلى التمسك بحقيقة واحدة، هي حقيقة وحدة الشعب وسعيه للعيش الكريم والتوحد وإن اختلفت السبل وتفرقت الأهواء. إن إرادة البقاء والعيش المشترك لديه تتجاوز كل الصراعات لتعيد الأمة إلى مسارها الحقيقي.

كتب "كاداريه" الرواية في عام / ١٩٧٩ / يوم أخذت رياح التغيير تهب على المجتمعات العالمية، وتهز المعسكرين الشرقي والغربي على السواء، وكأنه قد استشرف ما تحمله هذه الرياح لبلده، وما سيواجهها في المستقبل القريب، وقد صدق حدسه، فبعد سنوات من كتابة الرواية كان على ألبانيا أن تواجه الظروف الجديدة وتنطلق في دروب التغيير لتساير ما يجري حولها دون أن تتخلى عن إرادتها في الحياة الحرة الكريمة، وفي قلب هذه المغامرة الجديدة لابد أن تضحي كثيراً لتحقيق أهدافها، لكنها تجري وراءها مطمئنة إلى أن تاريخها يشفع دائماً بظهور "قسطنطين" جديد يردها إلى هويتها الوطنية بعد تجربة الغربة ومرارة المحاولة.

* * *

الجسـر..

صراع القيم الاجتماعية في ألبانيا

يُقيم الكاتب الألباني إسماعيل كاداريه في رواية (الجسر) بالرموز والتجليات الثقافية عالماً أسطورياً متشابكاً ينفذ من خلاله إلى تصوير الروح الجماعية للشعب الألباني، وتشكل هذه الرموز جانباً مما يُعرف لدى علماء النفس بالتصورات التمثيلية الجمعية.

رواية (الجسر) مبنية على صورتين معاً. إحداهما صورة الفعل ومكونات هذا الفعل (الشخصيات والهدف أو القصد والبيئة) ... وصورة الوعي متمثلاً بكل ما تتضمنه من معرفة أو فكر أو شعور، فتفكير الكاتب كراوٍ يتيح لنا إدراك ماضٍ بعيد يمتد إلى ستة قرون خلت. وتصوّرٍ مستقبل لألبانيا أكثر إشراقاً، ويمتاز عمله الروائي بأن صورة الفعل فيه لا تنفصل عن صورة الوعي لأنهما مرتبطان معاً في حياة الإنسان.

يقدم "إسماعيل كاداريه" روايته بصورة وثيقة تاريخية يدوّنها راهب ألباني، وتجري حوادثها في أواخر القرن الرابع عشر ميلادي /١٣٧٧/ ويرويها "كاداريه" بلسان الراهب "جون أوكشاما" أما مسرح حوادثها فهو نهر "أويان" في ألبانيا، حيث يملك مستغل ثري عبّارات

وطوّافات تقوم بتسهيل نقل الأفراد والحاجات بين ضفتي النهر، ولم يكن النهر يثير اهتمام الناس، ولم يسبق أن كان مسرحاً لأحداث خارقة، إلى أن جاء يوم شوهد فيه رجل أبله مصاب بالصرع يرتمي على ضفة النهر وهو ينتفض إثر نوبة صرع أصابته، وقد انغرس وجهه في طين النهر، فاجتمع حوله البسطاء من الناس وسمع أحد المتنبئين يقول: إن هذه الواقعة نذير شؤم من السماء ولا بدّ من بناء جسر على المياه، مستغلاً المعتقدات الشعبية التي في الصرع مرضاً مقدساً يحمل على الدوام نذيراً، دون أن يدركوا أن هذا المتنبئ كان مدسوساً من أصحاب شركة إنشاءات تطمع في إقامة جسر على النهر واستغلال موارد العبور عليه.

وبعد ثلاثة أسابيع أقبل فريق من الخبراء ببناء الجسور لمقابلة الكونت "سترس جيكا" بعد أن مهدوا لزيارتهم بالترويج للنبوءة العجيبة التي أعلنتها نوبة الأبله المصاب بالصرع، واتفقوا معه على إقامة جسر على نهر "الأويان" على أن قدموا للكونت أمير المنطقة مبلغاً من المال مقابل الأرض والضريبة السنوية على أن يكون لهم حقّ استثمار العبور، وكانت موارد الكونت شحيحة فاستسلم للشروط.

وكان الراهب الراوي أحد الذين حضروا الاتفاق وتولّي مهمة التفاهم والترجمة بين الوفد والكونت.

ولما انتشر نبأ بناء الجسر، أثار في أوساط الناس بلبلة وصخباً، فقد استقبلوا الخبر بالخوف والفرح، وفرحوا لأنهم لن يتعاملوا بعد مع أصحاب الطوّافات الوقحين، وداخلهم الخوف لأنهم لم يألفوا نقل دوابهم وحاجاتهم فوق جسر يهتز ويرتعش تحت أقدامهم، حتى إنّ بعضهم كان

يؤثر استخدام طرق برية أطول على أن يعبر فوقه، وكان العجوز "أيكون" يردد : إن هذا الجسر هو ظهر الشيطان، وسوف تصيب اللعنة كل من يجرؤ على المرور فوقه.

وشرع البناؤون والمهندسون يتوافدون ويخططون ويغرسون في الماء وعلى الضفتين أوتاداً، فأثار قدومهم الرجل الثري الذي يملك الطوّافات والعبّارات، وأدرك أن موارده ستنتهي من عملية العبور بعد إقامة الجسر، فذهب إلى الكونت أمير المنطقة يحتجّ على إقامة الجسر، فلم يصغ الكونت لشكواه، ووضح أن معركة وصراعاً ستنشب بين "وحوش الماء" ممثلين بسيّد العبور البحري، والشركة التي ستتولى بناء الجسر "أصحاب البر" أو النقل على اليابسة فلما يئس سيد النقل البحري من إقناع الكونت أوضح له الخطر الكامن في بناء جسر، لأنه سيكون مرفقاً لنقل القطران الأسود إلى كل من بيزنطة وتركيا والمقاطعات الألبانية المعادية للكونت وهو آلة الحرب "ذلكم هو ما يجلبه القطران الذي تتهيأ لتركه يمر فوق الأرض .. الموت .. الحداد .."

"الوحش المائي" انهزم لكنه تحوّل إلى العمل في الخفاء، ولم يبق أمامه إلا تخريب منشآت الجسر، والترويج بين الناس بأن لعنة إلهية يعارض قيامه وتسعى إلى تخريبه ليلاً عن طريق حوريات الماء، وكان صاحب الطوّافات يروّج هذه الشائعات عن طريق أغان يرددها مغنون مأجورون في المقاهي والحانات.

وبصورة خفية يقارن الكاتب "إسماعيل كاداريه" بين نهم الاستعمار الغربي بشكله القديم الذي تمثل بالاجتياح الصليبي للشرق، والاستعمار

الحديث بأسلوبه العلمي وتقنياته المتطورة، فأصحاب العبّارات يمثلون النظام العالمي القديم ويمثلهم في الرواية أصحاب الطوّافات بطرائقهم القديمة والتقليدية. وبناء الجسر رمز الاستثمار الغربي الحديث ويمثله أصحاب شركة البناء وما يملكون من وسائل تقنية متطورة.

استطاع صاحب العبّارات أن يؤلب الناس ضد الشركة الحديثة، فرأوا فيها ذئباً مفترساً. وعزّز موقفهم العوائق التي اعترضت لإقامة الدعائم، فقد كانت مياه النهر زمن الفيضان تكتسح الحفر، وتجرف في طريقها أكثر من مرة قواعد الجسر بعد إقامتها، ورأوا في ذلك انتقاماً من النهر الذي يرمز به الكاتب إلى قوة الشعب وروحه التي تقاوم كل غريب ودخيل، مع أنه كان شعباً ممزقاً يخضع لعدد من الأسر الحاكمة الإقطاعية التي شكلت لنفسها إمارات ودوقيات متناحرة تتعاون مع الدول القوية المجاورة ليقهر بعضها بعضاً، ولم يستفد من هذا التناحر إلا تركيا العثمانية التي بدأت طلائع قوتها وجواسيسها تظهر بوضوح في مناطق البلقان بحجة دعم هؤلاء الحكام الأصدقاء من منازعات الحكام المحليين، فتفرض عليهم مقابل دعمهم شروطاً ومطامع منها تسلم قاعدة بحرية هامة سهلت لجيوشهم اجتياح الأراضي البلقانية، وكان باشاواتهم ينفذون بالمصاهرة إلى قلب المقاطعات البلقانية، ويلتقي الراهب "جون أوكشاما" العالم "ايركهارت" الذي كان مختصاً باللغات، فيذكر أن أسماء الآلهة اليونانية تنحدر من اللغة الألبانية، فيوافقه العالم بهزة الرأس قائلاً:

ليست الحرب بين اللغات أقل مأساوية من الحرب بين الناس.. ويكرر صاحب شركة العبّارات اعتداءاته على الجسر، فيرسل جماعة

لينتزعوا من قواعده تحت الماء الحجارة المشيدة، فيسخط أصحاب الشركة المشرفين على بنائه ويلجؤون إلى الكونت الذي بدا قليل الاهتمام، فلم يجد هؤلاء حلاً إلا بالانتقام، ومقابلة أسطورة العقاب الإلهي للنهر بأسطورة مقابلة تخفي في طياتها جريمة قتل دنيئة، فقد روّج هؤلاء بعد اكتشاف المنفّذ لعمليات التخريب "مرّاش" وضَبْطُه بالجرم أن النهر ينتقم من بناة الجسر، ولن يخمد غضبه إلا بتقديم تضحية له، وهو أمر كان مألوفاً لدى الشعوب القديمة، ويعلنون عن جائزة مغرية لمن يتقدم بالتضحية بنفسه بأن يحبس داخل الإسمنت في قاعدة الجسر أضحية لإلهة الماء، وبعد الترويج لهذه الفكرة الجهنمية أخذ الفاعل "مرّاش" وحبس داخل جدار الجسر وقد برز رأسه من كوّة فيه، وكان المتآمرون يسكبون على رأسه الجص المذاب ليستروا ندوباً كانت في جسده بسبب التعذيب، وانطلت الحيلة على الناس الذين اقتنعوا أن "مرّاش" تقدم مختاراً للتضحية إمّا لطمع بالجائزة لأنه كان معيلاً أو لأن في حياته قصة حب دفينة وهو الرجل المتزوج.

ويلتقي الراهب بالرجل السلافي الذي دبّر المؤامرة، وكان أكثر رجال الشركة صمتاً، لكنه أخطرهم عملاً، فيتحدثان عن الأسطورة لدى البلقانيين، ويتناولان بالنقاش أسطورة بلقانية مماثلة لأسطورة "مرّاش" تدور حول حبس امرأة في جدار إحدى القلاع، وكانت زوجة أصغر ثلاثة أخوة بنوا القلعة، فكان ما يبنونه نهاراً تنقضه قوى سحرية ليلاً، واقتنعوا أن عملهم لا يتم إلا بتقديم أضحية، فقرروا أن يقدموا إحدى زوجاتهم وهي التي تحمل إليهم الطعام في صبيحة اليوم التالي، وتعاهدوا ألا يبوحوا بالسر لزوجاتهم، لكن الأخوين الكبيرين خالفا العهد، وأعلما

زوجتيهما بالأمر، ولم يبح به الأخ الأصغر فكانت زوجته الضحية، وبهذا يكون الأخوان قد انتهكا العهد.

ظلّ جثمان "مرّاش" بوجهه المكلّس وعينيــه المفقودتين من محجريهما محط اهتمام الزائرين الذين كانوا يتوافدون لرؤية هذا المضحّي العجيب، وكان أهله وزوجته وطفله يزورانه، ثم نشب بينهما خلاف على الجائزة السخية، وسرت الشائعات أن الميت المضحي كان يخرج ليلاً من محبسه.

وانتهى بناء الجسر، وطويت الجريمة التي اكتست طابع الأسطورة، وانتصر بناة الجسر على أصحاب الطوّافات الذين غادروا البلاد بعد إنجاز العمل، لكن أحداً من الناس لم يجرؤ على عبور الجسر اللعين في نظرهم، ثم بدأت عجلات العربات التي تحمل القطران والإسفلت لسيد البلاد "بالشا الثاني" فقد احتل الإمارة بعد موت "كومنين" وتنازلت الحامية البيزنطية عن حصتها فيها إلى العثمانيين.

وكان جسر "أويان" الذي لعنه الشعب، يحمل إلى البلقان المآسي منذ أن أقيم على دم الجريمة. فقد برزت مأساة اجتياح العثمانيين لأراضي ألبانيا والبلقان.. ففي صباح أحد الأيام شوهدت مجموعة من الجيش العثماني على خيولهم ينهبون الريح، ويعبرون فوق الجسر، فلما بلغوه اصطدموا بحاميته الألبانية، وتعمّد الجسر بالدمٍ العثماني، إذ سقط فوقه بهذه المواجهة أحد الفرسان، وسقط آخر من فوقه في الماء، ولم تجد تحالفات أميري المقاطعات الألبانية "بالشا الثاني وشارل توبيا" وطموحهما في توحيد ألبانيا وبسط الزعامة عليها، وبدأ الهجوم العثماني

بتقليد متبع وهو لعن القلاع العاصية، واكتسح الجيش العثماني الجسر، وكان الراهب هو المدوّن للأحداث آخر ضحية تسقط على الجسر وهو يتأمل وجه "مرّاش" الذي سبقه. وكان لسان حاله يقول:

"أيها المرّاش المنكود، أية مصائب سيكتب لك أن تشهد، فالمستقبل يبدو لي مشحوناً بالكوارث، لكنه يحدث لي أن أقول له أيضاً: إنك لمحظوظ سوف تشهد كثيراً من المآسي، لأنه مهما حدث فإني مقتنع بأنه ليس في وسع أي إعصار مشؤوم يكنس الوطن الكبير " ألبانيا عن سطح الكرة.

*   *   *

هذا ملخص رواية الجسر، وقد دأب الكاتب الألباني "إسماعيل كاداريه" في رواياته التاريخية أن يهتم بالتفكير الأسطوري الذي يسقطه على الأحداث التاريخية، فينزل الأسطورة منزلة الواقع المقترن بالأحداث، فصيغة الفكر عنده تقوم على نموذج غير مباشر، من خلال اعتماد الرموز والتفسير للوقائع الذي يعكس روح الشعب الألباني، والكاتب معني بالملاحم الشعبية البلقانية والأغاني والمعتقدات الأسطورية القديمة .. ويقدم لعلماء الانتروبولوجيا والاتنوغرافيا مادة غنية عن الثقافة الألبانية، وجذورها الراسخة في ضمير الشعب، قابلة للتحليل والدراسة.

وبما أن "إسماعيل كاداريه" ألباني فهو أقدر من هؤلاء العلماء على فهم الروح الألبانية واستشفافها وتحليلها، ولاشك أن الفكر الأسطوري يظل منهلاً غنياً ورافداً خصيباً لفن الرواية والقصة، إذا أحسن الأديب تمثله وتحليله للوصول إلى مفاهيمه المجردة وتحليل رموزه الخفية إلى مواقف وقيم الألبانيين ونمط حياتهم السائد، وما تحمل ثقافتهم من

خصائص متميزة تعد انعكاساً للشخصية الألبانية خاصة والبلقان عامة. فالرواية تظل أسمى من الاستدلال العقلي .. والفكر الأسطوري أفضل من الفكر القياسي، لارتباطه بالحياة الاجتماعية وتعبيره عن حقائقها بيسر وبساطة.

إن رواية "الجسر" للكاتب إسماعيل كاداريه، يتجاوز معناها لتغدو رمزاً للجديد في مواجهة القديم وتعبيراً عن الصراع بين القديم والجديد. فالقديم الذي يعكس روح الشعب البسيط والمحافظ، لكنه يستطيع بفكره الأسطوري أن يحدس بخطر الجديد الذي يمثل غزو الفكر العالمي والحضارة الغربية بوسائلها القوية وأساليبها الماكرة في مواجهة فكر بدائي وأسلوب عتيق يرمز إليه الكاتب بطريقة اجتياز النهر بالطوّافات، والشخصية الألبانية ممزقة في الصراع بين نمطين من الاستغلال كلاهما يستهدف الربح، ويرتكب في سبيله جريمة، ويستغل براءة الشعب لتنفيذ مخططاته ومؤامراته، وهذا النمط من الاستغلال تتضافر على ترسيخه عناصر عديدة منها المال والنفوذ الإقطاعي، والهيمنة الرأسمالية، والدعاية واستغلال التفكير السائد بين الشعوب، وللتقاليد والمتقدات نصيب في ذلك، فهي منفذ للمستقبل للوصول بها إلى الأهداف الجشعة.

يجمع إسماعيل كاداريه بين عدد من الأساطير استغلّها الطرفان الجشعان المتصارعان، وهي أساطير في جوهرها الحقيقي إيجابية، فالعهد وأسطورة المرأة المحبوسة في جدار القلعة، والإيمان القديم بضرورة التضحية لتجنب غضب الأنهار هي في جوهرها أساطير إيجابية تدعوا إلى احترام العهد، والتسليم بأن السيطرة على الطبيعة لا بدّ

أن يرافقها تضحيات إنسانية، لكن ذلك التفكير القديم اكتسحته حضارة الغرب التي عبرت عنها شخصية رئيس الورشة في الرواية بقولها :

(بدأت ترتسم بغموض، غموض شديد، في هذا الجزء من أوربا معالم نظام جديد سيدفع بالعالم إلى الأمام عدة قرون من إمارته. منها: افتتاح مصارف جديدة، وتضاعف عدد المرابين، وتزايد القوافل التجارية، وتنظيم الأسواق الشعبية، وشقّ الطرق وبناء الجسور الحجرية. ولم تكن هذه الحركة بأسرها إلا ولادة عالم جديد وموت العالم القديم).

ويتضح مضمون الرواية جلياً في حديثه عن الجسور :

(لم تكن الجسور على ما يبدو تنصب فوق مجاري المياه لتتمتع السيدات الراقيات بالمناظر من فوقها، وليس الجمع بين ضفتي النهر لخدمة الإنسان .. لكن جسراً كهذا حتى وإن تمّ إرواؤه بالدم، أنفع ألف مرة منها).

لكن المهم في نظر الكاتب إسماعيل كاداريه هو من ينتفع بهذا الجسر ؟؟ ومن أجل من يستخدم ؟؟ ولمن يعود نفعه ؟؟

وفي سعيه للنفاذ إلى أعماق الضمير الاجتماعي لدى الشعب الألباني استطاع"كاداريه" أن يبتدع من مخيلته الخصبة أسطورة جديدة يضيفها إلى الأساطير الموروثة، إنها أسطورة "مرّاش" الشهيد المضلّل، وحبيس قاعدة الجسر، وكأنه يريد أن يقول:

إن الأنظمة قادرة أن تبتدع أساطير متواترة تلهي بها الشعب عن مخططاتها الخفية، ويقع الشعب فريسة معتقداته البريئة. لكن إبداع إسماعيل كاداريه لم يتجلّ بالنفاذ إلى عمق الروح الألبانية، وإنما تعزز

بقدرته الفائقة على الوصف والتحليل، وأنسنة الجماد واستنطاقه، حتى كأن للأشياء روحاً تنطق وتعبر وتشارك الجماعة روحها (وكأن الجسر قد جمد فوق النهر شبيهاً بأيلٍ تحجرّ بغتة في قفزته، وكان بارداً كئيباً، وشعرت على حين غرّة أنه كان في خطه المنحني قليلاً في قعوده في وحدته ما يشبه الترقب.. وقلت في نفسي: ما الذي تنتظره أيها الشيء الحجري؟) وفي تعليقه على موت الضحية "مرّاش" يجمع كاداريه بسطور قليلة بشاعة النظام الاستغلالي الجديد (هو نوع من ميتة مسعّرة وموقعه بالأختام، و محدد لها معدّل فائدة، وكنت أصاب من جراء ذلك بالدوار).

ولم يقتصر الكاتب إسماعيل كاداريه بعرض مأساة ألبانيا فحسب، في مواجهة القوى الإمبريالية الجديدة التي انتشرت في أوربا بعد الحروب الصليبية.. بل يعرض مأساة الإنسانية وهي تودع قيمها السالفة لتستسلم لعصر جديد تسوده القيم المادية، وقسوة الرأسمالي الذي لا يرحم، والأخلاق الوصولية التي تمرغ بالطين مقدسات الإنسان القديم ومعتقداته.

* * *

الوحش

تحليل للمواقف التاريخية الخالدة

رواية (الوحش) للكاتب الألباني إسماعيل كاداريه هي آخر عمل أصدره .... والوحش هو أي نظام يستخدم العنف والقوة والمكر والخديعة في تنفيذ أهدافه الخفية، في حين يعلن للناس أنه يمثّل دور المنقذ للشعوب المدافع عن مصلحتها، فهو يغطي مآربه السرية ليسوّغ جرائمه، وليظهر للعالم بمظهر من الثقافة والحضارة والديمقراطية .

وأسلوب العنف والخديعة لجأ إليه الأقوياء عبر التاريخ، وليس وليد عصرنا، فالقوي يستفيد من التجارب الإنسانية المتراكمة في مجال العدوان والاعتداء لتصفية خصومه، أو توسيع رقعة سيادته .

ومن الملاحظ أن الكاتب إسماعيل كاداريه بدأ تأليف روايته في الستينات ولم تنشر إلا في التسعينات، وهو زمن طويل يعلّل بالأحوال السياسية التي كانت تحيط بوطنه ألبانيا والعالم في ظل معسكرين قويين شرقي وغربي .

يتعذر على الشعوب الصغيرة أن تكون حرّة في خيارها أو ممارسة حريتها واستقلالها في اتخاذ القرار، إذ لابدّ لها أن تدفع ثمن عصيانها أو

تمرّدها على الأقوياء، وهو ثمن قد يصل أحياناً إلى محوها وتصفيتها بالقوة، ثم تأتي التغطية الذكية لهذه الجرائم على صورة أساطير تحوّر الحقيقة وتختلق الأسباب الوهمية، ويعمل المتسلط على أن تنتشر بين الناس، وتلاقي رواجاً بحكم صلتها بالتفكير الشعبي الساذج، بل تغدو جزءاً من التاريخ المعترف به دون محاولة لتفنيدها وإظهار بطلانه على أن هذه الأساطير التي يروّجها القوي المغتصب كثيراً ما تصطدم بمعتقدات أساطير شعبية تبتدعها الشعوب ويكون لها بالمقابل دور إيجابي في الدفاع عن مصلحتها واستغلالها لتحرير الشعوب. فالأساطير الشعبية في أدب "إسماعيل كاداريه" يحسن استثمارها وهي عادة نوعان:

أساطير يبتدعها المغتصب، وأخرى من نتاج الشعوب، والأسطورة عنده سلاح ذو حدّين، فهي تعمل سلباً في تخدير عقول السذّج والبسطاء، لكنها في الوقت ذاته سلاح فعّال للتحرير والثورة، إذا أحسن فهمها وإدراك مراميها البعيدة .

والكاتب "إسماعيل كاداريه" مولع بدراسة روح الشعب الألباني والشعوب البلقانية، متجلية بأساطيرها التي خصّها بالشرح والتحليل، واستغلها رموزاً لنشر الوعي لدى قرائه. فما من رواية له إلا تتضمن عرضاً لهذه الأساطير والمعتقدات، واستغلالاً رائعاً لها.

ورواية "الوحش" ذات حبكة بسيطة جداً، إلا أنها حافلة بالرموز والدلالات العميقة.

تقوم الرواية على حادثة أولية، فقد أحب "جنت روفينا" بطل الرواية فتاة تدعى "لينا"، وكان "جنت" طالب فلسفة في جامعة موسكو.

عاد إلى بلدته "تيرانا" إثر التوتر الذي نشأ بين ألبانيا والاتحاد السوفيتي، وتعرّف "جنت" إلى الفتاة الشقراء "لينا" التي كانت مخطوبة إلى شاب عنيف لا تحبه يدعى "ماكس". ومالت "لينا" إلى "جنت" وأحبته وقبلت أن يخطفها في ليلة زفافها. لكن "ماكس" خطيـــبها السابق قرر أن ينتقم منهما، وطفق يرسل رسائل تهديد إلى خطيبته السابقة، وينذرها بأنه سيثأر لكرامته المطعونة. وعاش جنت ولينا في دوامة قلق متصاعد حتى باتا يريان عدوهما مترصداً لهما في كل مكان.. في الملاهي والمطاعم والحانات..

وكانت " لينا " تدعى عند أهل قريبتها "هيلانة" بعد أن رأوا في فيلم عن حرب طروادة عرض بقريتهم شخصية "هيلانة" الإغريقية الشقراء. ومما زاد في قلق "جنت" أن قصة اختطافه حبيبته ليلة زفافها تذكّر بأسطورة اختطاف "هيلانة" الإغريقية التي كانت سبب حرب طروادة مع أن اختطاف "لينا" تمّ بمحض إرادتها، وبدوافع حبها له ورغبتها فيه، لكن قصة الاختطاف هذه حوّرت خلال ثلاثة أسابيع، وصوّر خطيبها السابق الأمر على أنه كان اختطافاً قسرياً، وما أن سمع والد "جنت" بهذا الاختطاف القسري حتى أرسل إلى ولده يوبّخه على ذلك، ولما كان "جنت" مولعاً بالتاريخ ومختصاً بالفلسفة، فقد تساءل في سرّه: إذا كانت قصة زواجه قد حوّرت في أيام إلى هـــذه الدرجة، فما ظنك بالتحوير الذي طرأ على أسطورة اختطاف "هيلانة" في حرب طروادة عبر ثلاثة آلاف سنة ؟

ويستنتج "جنت" أن العدو الشرس والقوي باستطاعته أن يقلب الحقائق ويموهها ليخفي نيته الدنيئة، فلا بدّ أن اجتياح الإغريق لطروادة آنذاك لم يكن بسبب حادثة حب فردية عابرة، بل إن الأمر أبعد من ذلك

لقد حوّرت الواقعة التاريخية، وصمّم حبكتها الإغريق ليخفوا نيتهم السرية في محو طروادة من التاريخ، ولما كانوا يدّعون الثقافة والحضارة والديموقراطية، ولا يحق لهم أن يظهروا للعالم بمظهر الوحش المفترس. فقد طلعوا على عصرهم بقصة "هيلانة"، وتلقت الأجيال من بعدهم الأسطورة دون تدقيق وتمحيص، ولما كانت أسطورة "هيلانة" تعنيه لأنها تتصل بزواجه وواقعة اختطافه حبيبته التي جرى تحويرها، فقد قرر أن يتخذ موضوعها ليعالجه في أطروحة للدكتوراه يتقدم بها إلى الجامعة.

عكف "جنت" على أراء المؤرخين في تعليل هزيمة طروادة، فقد استبعد هؤلاء مثلما استبعد أن تكون الأسباب علاقة حب عابرة، إذ ذهب بعضهم إلى أنه لا وجود حقيقياً لذلك "الحصان الخشبي" الذي يزعم أن الإغريق تسللوا من جوفه إلى طروادة، بل رأى بعضهم أن بعض بيوت أهل طروادة نقش على أبوابها صورة حصان ليلة الاجتياح لكي يستبعدها الجنود الإغريق عن فظائعهم، لأن أهلها كانوا من الموالين للإغريق، ففي كل بلد تجد بين أهلها من يتعاون مع العدو.

وذهب مؤرخون آخرون إلى أن فكرة الحصان جاءت من أن الإغريق اختفوا بعد انسحاب جيشهم الصوري وراء جبل "هيبيوس" الذي يوحي اسمه أو شكله بكلمة حصان، وقد يكون الإغريق قرروا تدمير المدينة بالحيلة، فتظاهروا بالانسحاب، وعقدوا معاهدة مع طروادة عن طريق وفد مفاوض، ولكي يتمكنوا من اقتحام المدينة، وبنوا ذلك الحصان الخشبي فوق نفق يفضي إليها ورُسِمَ على بابه صورة حصان أو أنهم قدموه هدية للطرواديين دليلاً على حسن نيتهم، بينما كان جيشهم يلتف ليقتحم المدينة من طرف آخر. ثم ابتدع الإغريق قصة اختطاف "

هيلانة " ليستروا خديعتهم الكبرى ويبدو أن هيلانة شاركت في تدبير هذه الخديعة، وكانت مع الوفد المفاوض لتزيد أهل طروادة طمأنينة.

شغلت أحداث الأسطورة "جنت" لكنها لم تصرفه عن مخاوفه من انتقام "ماكس" .. ومما زاد في قلقه أنه كان يمرّ أحياناً مع زوجته بهيكل شاحنة عسكرية مزروع في حفرة، وكان شكلها يشبه شكل "الحصان الخشبي" الذي نفذ منه الإغريق إلى طروادة، فكان يتوجّس من منظره شراً هو و لينا ؟ حتى تصورت هيكل الشاحنة يخاطبها قائلاً :

- هذا حصان عرسك يا هيلانة، وقد جاء من أجلك.. ويبدو أنها تخشى أن يخرج خطيبها السابق من جوف ذلك الهيكل الذي صمد للرياح والعواصف .. كان "جنت" يهدئ روعها قائلاً :

- تعلمين أنه جاء من أجلنا كلنا، ولم يجئ من أجلك..

فتجيبه: يريدون أن يستعيدونني، وأن يخطفوني من هنا، ويجروني من شعري ..

لكن " جنت " يحاول أن يطمئنها قائلاً :

- ليس في داخله سوى كل أشياء العالم البالية.

ولا يخفى أن الكاتب "إسماعيل كاداريه" يشير هنا بوضوح إلى مساعي العالمين الرأسمالي والشيوعي في اجتياز ألبانيا وسواها من البلدان التي انفصلت أو كانت تطمح للانفصال عن منظومة الاتحاد السوفيتي، ويرمز من خلال واقعة "الحصان الخشبي" براعة العالمين الرأسمالي والشيوعي في إخفاء نيّتهما، فهما يسعيان تحت ستار دوافع تدّعي أنها

لمصلحة تلك الشعوب، ويغطيان مخططاتهما في تضليلها بأنهما يسعيان إلى تحرير الشعوب من خطر الشيوعية، وهما يشكلان رعباً دائماً للشعوب فلا يدعانها تستقر أو تستريح إلا إذا انصاعت لإرادتها، وهما قادران على أن يموّها الحقائق، ويزرعا شائعات تغدو كالأساطير، لتجد طريقها للانتشار بوسائلهما وأساليبهما، إنها بمثابة "الحصان الخشبي" الذي تمّ به تسويغ احتلال طروادة، ذلك الحصان الذي يقول فيه " كاداريه" إنه موجود وغير موجود في الواقع. موجود كما يقول الكاتب لأن جميع الناس يشعرون بأنهم مهددون به بشكل أو بآخر، دون أن يعرفوا تماماً ما يهددهم، إنه موجود بجوهره، وغائب في شكله الخارجي.

والأسطورة هي كما يقول "كاداريه" أمنع من سور الصين أو أهرام الفراعنة أو ناطحات السحاب، إذ ليست الأهرام سوى كتل من حجارة أو حديد، أما الأسطورة فتقع بين الحلم والحقيقة.. إنها آلة قوائمها مغروسة في المتخيل ورأسها موجه باتجاه الأزمنة الحديثة، لزرع الإرهاب قادرة على التكيف مع كل عصر لاستغلال مآسي الأجيال المتعاقبة .. ولأن الرواية كتبت كما تشير وقائعها في مرحلة حاولت فيها ألبانيا أن تمارس إرادتها الحرة في استقلال القرار بعد أن نشبت بينها وبين موسكو جفوة، فقد توقع الكاتب على آثرها أن يتلقى بلده ضربة من المهيمن القوي، فالمسألة في نظر "كاداريه" ليست مسألة حياد تطمح إليه بلاده أو استقلال في السيادة، إنها مسألة الوقوع بين قوتين كلتاهما ورثت عبر تاريخها وتاريخ البشرية أساليب في الهيمنة والسيادة تخفيها تحت شعارات نبيلة، لكنها في الوقت ذاته تسوّغ لنفسها الانتقام بقسوة، وتحسن اختلاف الأسباب التي تموّه سلوكها.

إنهم يجهدون ليل نهار، وهم يبهرجون "خديعتهم الكبرى" في إيجاد السبل الكفيلة بإبقائها سراً، لا عن عيون عصرهم فحسب، بل عن عيون العصور القادمة، إذ لا ينبغي أن تكتشف حتى بعد انتهاء الحرب و الحيل والجرائم والفظائع والمذابح، كل ذلك يمكن أن يفشي سره، إلا الخديعة الكبرى، ولا يقتصر الأمر على عدم الكشف عن وسيلة يمكن إعادة استعمالها بنجاح في المستقبل، وإنما يعدوه إلى الحفاظ على المعتدي .

كان "جنت ولينا" يشعران بالفزع الدائم ولاسيما في الليل، وكأن عدوهما يقترب على مهل في ضوء القمر وهو يحرّك أطرافه العملاقة.. ومع أن "جنت" كان يؤمن بأن أسلوب التهديد بالقوة سينتهي من العالم، لكنه كان يعترف في قرارة نفسه بأنّ عليه أن يقضي هو وحبيبته جزءاً من حياتهما برفقته، وكان يتوقع أن العنف سيتداعى بعد عقدين أو ثلاثة عقود من الزمن، ولكن بعد أن يصبحا شيخين ضغط على روحهما طول العمر ويعانيا الرهبة منه والتوتّر المتزايد من ترقب انتقامه.

هذا "الحصان الخشبي" أي الخوف من الإرهاب والانتقام لم يخرج في عصرنا من أي أسطورة، وإنما نَسَلَهُ عصرنا بالذات، وشكله وحده هو الذي استعاره من الماضي السحيق، إنه الوحش الأسطوري الذي يهددنا دون أن نراه، ومن هنا سمى الكاتب "إسماعيل كاداريه" "الوحش" مستنداً إلى قول الشاعر المجهول فيه:

لم تشبَعْ من النيران والمعابد وصيحات طروادة

أيها "الوحش" لقد ألفت أجساد المدن

* * *

ومنذ الفصل السابع من الرواية، وبعد أن عرض "كاداريه" حبكتها الأساسية في الفصول السابقة يخرج عن نطاق البنية الروائية المألوفة في الفصول اللاحقة إلى تشكيل روائي عصري لا يتقيد فيه بتقنيات الفن الروائي، فيمزج بين الواقعي والمتخيل، وبين الحقائق والأحلام، وبين الماضي التاريخي المتمثل بأسطورة هيلانة الإغريقية، والحاضر المعاصر المتمثل بواقعة اختطاف "لينا" أو هيلانة المعاصرة وبين ملابسات حرب طروادة، وملابسات واقع ألبانيا وهي تحاول أن تؤكد وجودها دون أن تتعرض للانتقام من القوى المسيطرة، فيخصص الفصل السابع للحديث عن متابعة "ماكس" خطيب "لينا" السابق لأخبار خطيبته، والتحقق عما إذا كانت ذهبت مع حبيبها بملء إرادتها. وهذا التقصّي أمر لابدّ منه للوقوف على واقع الحال واقتراح العقوبات المناسبة للخطيبة ألبانيا التي تمرّدت، وهي عقوبات يجب أن تتصف بما يتصف به حصان طروادة، فهو قابل لأن يلمس وعصيّ في الوقت نفسه على الإدراك، يجسد الخير والشر، وفي استطاعته الظهور بأي هيئة والاختفاء كذلك دون أن يترك أثاره. يثير الارتياب إلى حد أن يصبح كل إنسان مدفوعاً للشك، ويحلم أحد رموز القوة والانتقام في الرواية بأن الجماهير اندفعت بصخب في صباح يوم بارد وأحاطت بالحصان الخشبي لتستولي عليه، وأدرك "صانعه الحاذق" أن المدينة كلها ستستحوذ عليه، إلا أنها لم تكد تبلغ قوائمه حتى اندلع بينهما الخصام، وعلى الرغم من أن أحدهم رماه بالزجاجة، إلا أن من الواضح أن الجماهير كانت تفتقر إلى القوة، وذلك البطل الذي اجترأ على رميه بالزجاجة لم ينل منه، وحركته الجماهير المنتصرة مزهوة بمكسبها دون أن تعلم أن وراء هذه الخديعة جيشاً جراراً يكمن مختبئاً لها،

إنها أسطورة هيلانة تعود من جديد، وكأن الماضي يحيا في الحاضر، ولم تطل فرحة الجماهير، فقد اندلعت الحرائق في المدينة ولم تبق حتى على المصرف الوطني ومصنع الأحذية والمكتبة الوطنية، وتأرجحت جثث المشنوقين على أعمدة الهاتف، والمعدمون رمياً بالرصاص تملأ جثثهم الشوارع بما فيهم ذلك البطل الذي تجرأ على رمي الحصان بزجاجة نصف فارغة فقد أجهز عليه المنتقمون، وهكذا تمّ تصفيه المدينة و(المدن كالناس تولد صغيرة على ضفاف الأنهار وتكون أول الأمر لطيفة كالأطفال، ثم تكبر وتشرع في قضم السهل المحيط بها، وتغدو شريرة قاسية حين تحين شيخوختها، ثم يغادرها أهلها لاجئين إلى مدن أخرى).

وفي الفصل التاسع من الرواية، يعود بنا الكاتب "كاداريه" إلى الواقع بعد حلم سيد الانتقام، فنرى "جنت" وحبيبته يتجولان في متحف المدينة، ويسمعان عن مؤامرة تدبر بالخفاء، وكانت في الواقع إشاعة انتشرت لزرع القلق في النفوس، لأن زرع القلق ربما كان من أبرز هموم كل نظام بل أهم من صنع الأسلحة والسلاسل.

كان "جنت و لينا" يترددان إلى بيت الطلاب، ويتناولان وجباتهما في مطعمه ، وفي ذات يوم تذكرت "لينا" والدها ووالدتها حين رأت أسرة مؤلفة من عجوزين وولديهما، فمنذ زواجها هزت الفضيحة كيان الأبوين، وانطويا على حزنهما دون أن يعاتبا لينا على تصرفاتها وفعلتها، ثم رأيا سكيراً يدمن النظر إليهما، كان غواصاً بحرياً يرتدي جهازه باستمرار ولا يتخلص منه، وكانا يريانه في ترددهما إلى الأمكنة العامة يتابعهما بترصد فيبعث في نفسيهما خوفاً مستمراً.

ويتابع الكاتب "إسماعيل كاداريه" ذلك القلق في نفوس أبناء العصر خوفاً من انتقام القوي، وأساليبه البارعة في التمويه، فيقرأ "جنت" واقعة انتحار "لاوكون" في حرب طروادة، وكان من زعمائها الذين عارضوا إقامة سلام مع الإغريق، ويرى موته جريمة قتل نفّذها الإغريق وأعوانهم من الطرواديين، وادعوا أنه انتحر. ثم يستعرض مصرع "تريموه" شاعر طروادة العظيم، الذي أرغم على تمجيد الإغريق يعد إبادة مدينته العظيمة، فيرى أنه مات حزناً على مصير وطنه.

أما "هوميروس" راوي أخبار هذه الحرب المأساوية، فلم يكن أعمى البصر كما تزعم الروايات بل كان أعمى البصيرة حين سلّم بأسطورة فتح المدينة على أنها حقيقة قائمة دون أن ينتابه الشك لتنفيذها " ليس عمى هوميروس سوى رمز يؤكد أنه تغنى بوقائع يلفها الضباب، فهي من ثم غير مرئية من العين البشرية.. الجميع كانوا عموا ولا ريب إزاء هذه الأحداث ونسبوا العمى إلى الشاعر الذي قدمها".

لم يلمس "جنت ولينا" آثار انتقام "ماكس" عليهما مباشرة، لكنهما عاشا في دوامة القلق، ولمسا صور هذا الانتقام في مصرع الشابة الشقراء التي تشبه "لينا" فقد طعنها أحد عملاء "ماكس" بالرمح العتيق الذي صمم "ماكس" أن يطعن به خطيبته، والأداة هنا مستعارة من الماضي، ليبرهن الكاتب "كاداريه" أن الانتقام هو واحد في الماضي والحاضر، وأن أدواته وأساليبه وطرائق تغطيته واحدة في كل العصور، ولا يخفي أن القاتل كان يترصد "لينا" لكنه أخطأ هدفه فقتل "آنا شوندي" المساعدة في أحد مختبرات المدينة لأنها شقراء مثلها.

وفي الرواية يبدو "إسماعيل كاداريه" كاتباً قاوم العنف، يبدو كأنه تقمص شخصية "لاوكون" الطروادي الذي حذّر قومه من الخديعة، وتمت تصفيته، ولم يبق من ذكراه إلا تماثيله المنصوبة في متاحف العالم، ومن خلالها نلمح الندوب التي تركها الوحش المنتقم على وجهه، وإمارات هذا الوجه توحي بأنه يريد أن ينطق بشيء، لكن الرخام المصنوع منه يحول دون ذلك، ولا يخفى أن "كاداريه" غادر ألبانيا إلى فرنسا، فلعلّه يشعر بأنه مثل " لاوكون " الطروادي يطرده العنف ويمنعه من الكلام، ولم يبق منه إلا تمثال رخامي محتجب بالصمت، يطاف به في عواصم أوربا.

* * *

في رواية "الوحش" حقق الكاتب الألباني المعاصر "إسماعيل كاداريه" طموحه إلى تطوير أسلوبه الروائي، فبدت الرواية متحررة من قيود الفن الروائي التقليدي، فلا حدود للزمان أو المكان .. ولا فاصل بين الواقع والحلم، إضافة إلى تقنيات أخرى استخدمها الكاتب، منها تغريب الحدث أو ربطه بمشاهد تثير في النفس مشاعر تتجاوز ما يثيره الحدث بنفسه ، وهي مما أحاط الرواية بلون من الغموض، يضاف إليه ما تحمله الأسطورة من تماهٍ، وما تبعثه تعليقات بطل الرواية على وقائعها من تأملات وخواطر ضاربة في العمق.

ونلاحظ أن الرواية لم تبق رواية بمعناها الفني، بل أمست مزيجاً من الدراسة التاريخية وتحليل المواقف وتفسيرها، ومن انطباعات تعكسها، ووقائع جرى بعضها في الزمن السحيق، وبعضها في عصرنا.

كما نلمس محاولة من الكاتب "كاداريه" ليثبت أن الإرهاب يتخذ طوابع متعددة في كل العصور، لكنه يظل واحداً في جوهره، ومصدراً لقلق الإنسان المعاصر الذي يعيش في دوامة التوجّس والتوقع وانتظار ما سيأتي به المستقبل، فيمزقه الخوف من المجهول، وهو يدرك أنه عاجز عن التحرر منه، إنه لعنة القدر التي لا تحرّر منها إلا بتوحيد الكلمة ورصّ صفوف الجماهير لتواجه القوة بالقوة، أما دون ذلك فمصاعب شتّى تبرهن عليها مجريات التاريخ.

* * *

الشاعر والطاغية

ومرثية الموت والعدم

ليس أقسى على المبدع من الجحود والإهمال، خاصة إذا وقع ذلك التجاهل من مجتمعه أو من الإنسانية في مرحلة الشيخوخة، وبعد أن قدّم لمجتمعه عصارة موهبته. إن حالته كطائر الغيهب، تشق صغاره حوصلته، وتستخرج منها الحب، ثم تسلمه إلى الموت بلا رحمة. تلك هي خلاصة قصة "الشاعر والطاغية" "لإسماعيل كاداريه" التي توّج بها إبداعه الأدبي، وهو في عتبة الستين من عمره، فبدت كأنها مرثية حزينة ومفجعة لنهاية كل مبدع، حين يحسّ حين يواجه الموت بانصراف العالم عنه، بعد أن نسج أحلامه لخيره.

وسواء أكان بطل القصة "لاسفوش بوراديسي" الشاعر هو نفسه "إسماعيل كاداريه" أم كان معادلاً موضوعياً لكل مبدع، فإن قصة "الشاعر والطاغية" تظل رثاء حزيناً يصفع تنكرنا واندفاعنا الأرعن نحو كل جديد، وإرادة التغيير فينا، فندوس بأقدامنا بلا رحمة رموز الماضي وأركانه وسدنته الذين كانوا جزءاً من حركة التغيير في المجتمع، فهذا الاندفاع الأهوج يدفعنا إلى تجاوز تلك الرموز وإهمالها، بعد أن كانت في الصميم من نسيج حياتنا.

"لاسغوش بوراديسي" بطل القصة شاعر مبدع قدّم لوطنه الكثير، عاش حتى الثمانين، في مرحلة ساحرة. كما يقول عنها الراوي، كانت توشك على الانهيار، في الوقت الذي كان يواجه فيه الموت، وهي مرحلة يصعب تحديدها، ولا تتطابق ومرحلة الحكم الملكي أو الجمهوري أو الحقبة التي سبقت التحرير، إنه زمن يواكب تلك المراحل الثلاث مع بقائه غريباً عنها في زمن معاً.

كان شاعراً مبدعاً، له أسلوبه المؤثر في الحلم الذي لا يضاهى، هو شاعر حالم لم يستطع أن يطوّع قلمه ليكون محوسباً على أي مرحلة. ففي مرحلة التغيير الثوري بدت الرقابة على الفكر، وتقويم الأدب السابق عائقين أمام كل مبدع:

(في نادي الأدباء، كان الطعم المرّ للاجتماعات التي يوشى فيها بالكتّاب والمؤلفين والأحرار). وقد نال أدب "بوراديسي" نصيبه من هذه التقويمات السياسية الضيقة، والنقد الذاتي حول طبيعة البطل الإيجابي، وطبيعة الفن في الواقعية الاشتراكية.

لذلك ارتدى "بوراديسي" بزته السوداء، ودلف إلى اجتماع الحزب. واعترف بأغلاطه الأدبية، ثم انسحب من الاجتماع كمن ينسحب إلى نعشه.

ومرّت سنوات تمّ إهماله فيها كلياً.. (كان كالقمر البارد الذي يجعل أحلامه تتلألأ في الصحراء.. حتى الظلام فيها بلا حياة) (كان أشبه بذلك الدير القديم العائد للقرون الوسطى الذي تحوّل منذ زمن طويل إلى مخزن جبن، كان يُحسب ميتاً في نظر الناس، وفي نظر نفسه بينما ساد الساحة الأدبية التافهون، ومعطلو المواهب والمتزلفون، كان إهماله أشبه

بإهمالنا روائع الفن المعماري الموروث، بالكاتدرائيات التي صبّ فيها النوابغ عصارة فنهم، لكننا نمرّ أمامها اليوم بعدم اكتراث لأنها أصبحت جزءاً من الماضي لا يعنينا) تندر الكاتب "كاداريه" بقسوة على القيم والأنظمة، منطلقاً من دائرة عامة تفضي إلى دائرة أضيق، فعلى الصعيد البشري، تبدو له ظاهرة الصراع بين الأجيال في المجتمع الإنساني الأقسى من أن تُحتمل، وإن كانت تخضع في جوهرها للناموس الكوني، فالحياة تتخذ من وسائل وغايات لاستمرارها، ثم ترمينا في مرحلة الشيخوخة كالفضلات بحكم قانون التجدد والاستمرار، فنحن نخضع لنواميس يخضع لها كل ما في الكون من الكائنات الحية. إلا أننا حين نشيخ، نأبى أن نخضع لهذا القانون، فمنا مَنْ يتعالى على كبره وعجزه متحدياً إرادة الحياة، وهو حين يشعر بنفيه الحتمي، يقابل ذلك بالرفض، منا مَنْ يستسلم لليأس والعزلة، وهو يبصق على الدنيا لأنه يشعر أنه كان مطية لأغراضها، وفيّا ومنّا يؤثر الانتحار على تلك المذلة، على طريقة المسنين في قبائل الإسكيمو.. فمن الكبار يتكيّفون مع إرادة الحياة، ويدركون قوانينها، فيقبلون أدوارهم المرسومة لهم بأسى ومذلة.

إن تسليم الراية للجيل الجديد، لا يتم بنقلة هادئة، خاصة في مراحل الهزات الاجتماعية الكبيرة، حين يعصف التغيير باستقرار اجتماعي، ويتذرع الجيل الصاعد بعقائده وشعاراته وتطلعاته ليمحو صورة الماضي، وساعده على ذلك العنف في التغيير سرعة التبدل الحضاري، وتقوم العلوم التي تساعد على تغيير استقرار المجتمع، وإزاحة رموز ذلك الماضي وقيمه.

وفي مراحل التغيير الثوري تعنف تلك النقلة كما يرى "كاداريه" على حدّ القطعية بين الأجيال وصراع القيم على صعيد الأسرة والمنظمة

السياسية الثورية، وكل ضروب النشـــاط الاجتماعي، ويُسقط "كاداريه" من خلال النماذج التي رسمها في الرواية أفكاره وتحليله لهذه الظاهرة، إذ تبدو إرادة التغيير لـــدى الأجيال الفتية موسومة بالعنف والاندفاع، تريد أن تجتث الماضي ورموزه بعيداً عن كل ما يحمله ذلك الماضي من قيم وإيجابيات. وسدنة التغيير كما ترسمها الرواية، أناس مندفعون بإرادة هوجاء، لا يملكون من الثقافة أو الوعي ما يؤهلهم لبناء الجديد على أساس منطق واعٍ للثورة، إنهم يفضلون مصالحهم الشخصية، ويحكمون على الماضي ورموزه بانحياز الجاهل المتعصب، ويلجؤون إلى العنف ويحمون نظامهم بالشرطة السرية، حيث الحوار بين الأجيال مفقود تماماً.

يعبّر " إسماعيل كاداريه" عن ذلك المنطق الثوري المغلوط بصدمة الحافلة لشاخصات المرور على الطريق (ما زالت الطريق الرتيبة نفسها مغبّرة، وشاخصات المسافة نادرة، معظمها محنّي بتأثير صدمة ما، انتزعت إحدى تلك اللوحات ابتسامة مني .. فبعد أن انقلعت من مكانها، أعادت يد عابثة نصبها بشكل معاكس، أصبح الرقم /١٤٧/ المنقلب الذي لا يثير السرور لإطالته الطريق خمسة أضعاف مشيراً إلى الاتجاه المعاكس، خالطاً بين الاتجاهات والدروب).

في النقد القاسي، يريد الكاتب " كاداريه" أن يبرهن أن الماضي لا يموت، وأن تصفيته مستحيلة، فالبطل الشاعر "بوراديسي" الذي حكمت عليه الثورة بالموت والتصفية، مازال يمتلك إرادة الحياة، و" كاداريه" يرمز إلى هذه الإرادة القوية، بحب ذلك العملاق المحكوم عليه بالموت،

فتاة شابة هي "آنا" وهو ابن الثمانين، أنكر عليه أولئك الذين نفوه من الحياة أن يحب ويعشق.

و"كاداريه" يرمز بتلك الفتاة إلى تعلّق الكبار بإرادة الحياة، فالفتاة في القصة رمز للحياة التي تظلّ وفيّة لمن قدّم لها في شبابه عصارة جهده وإبداعه، وقد رفض الجيل الجديد هذا المنطق، فاستغرب ممثلوه في القصة أن يتعلق شاعر طاعن في السن بفتاة في مقتبل العمر، إن قوانينهم ذابت أمام منطق الحياة الذي لا يقيم حدوداً بين ماضٍ وحاضر ومستقبل، فالثورة لا تُبنى على الهدم والتنكر والجحود للقديم، وإنما تُرسي دعائمها على ركائز منه، باعتراف الممتنّ وشكره وتقديره، وبنقلة واعية لا تعصف بقيم المجتمع ورموزه .

ونلاحظ في الرواية.. كيف تطارد أجهزة الأمن السرية حبيبة الشاعر لأنها خالفت منطق الثورة، وتراقب منزله، إذ يحرّم عليه أن يحبّ الحياة إلا بقرار من مجلس قيادة الحزب، فمنطق الثورة يقضي ألا يصدر عن خصومها ما يشعر أنهم مازالوا أحياء بعد أن حكم عليهم الحاكم بالتصفية والموت، لكن الحياة نفسها ممثلة بالفتاة التي تسخر من سعيهم. فالشاعر خالد حيّ في ضمائر الأجيال، والحاكم زائل لا محالة (كان الطاغية يحسب أن باستطاعته أن يمنعه من الحياة، بينما العكس هو الذي حدث، وربما شعر بذلك، فغضب قائلاً:

مَنْ هي تلك الفتاة آنا..؟؟ ماذا يفعل الرفاق في الأمن هناك في الشمال..؟؟ مَنْ المسؤول عن الملفات والتحقيقات والتفتيش على الطرق..؟؟ لكن على ما يبدو فإن كل هذا فات أوانه الآن.. ؟)

ويلتقي "إسماعيل كاداريه" في نقده القاسي لمنطق الثورة برائعة "ايتماتوف" في (رحيل الجواد الأبيض) الذي رمز به إلى النهاية المأساوية لجيل من الذين خدموا الثورة، ثم تنكّرت لهم بعد نضالهم الطويل حين بلغوا مرحلة الشيخوخة، وكلاهما خاض تجربة نضالية طويلة، وقدّما أروع ما كتبته الأقلام في شبابها للثورة، ويبدو أنهما واجها لوناً من التنكر والإهمال في آخر العمر، لأن اندفاعة التغيير بمنطقها الانفعالي كانت تكتسح في طريقها كل ما تواجهه، حتى رموزها وسدنتها، حتى ليصح القول : (الثورة كالقطة تأكل أولادها).

قد يكون من ضرورات التغيير أن نتجاوز الذين مهدوا لنا الطريق، وقد يكون لدى الجيل المنصرم لون من التصلّب يمليه الهرم والعجز، والعناد في ألاّ يتركوا الساحة لمن بعدهم،وهذه حقيقة تنطبق على المبدع، لأن "أناه" تأخذ من "النحن" فإذا خسر هذا "النحن" وتمّ تجاهله، فإن حياته تفقد معناها، فلا بد أن يترك له الجيل الصاعد فرصة التواصل مع الجماعة لأن حساسيته المرهفة وسعيه إلى الخلود يرتبطان بحلمه الكبير في التغيير، ونحن حين نحكم عليه بالموت، إنما نحكم على عاشق للحياة هو من أكثر الناس تشبثاً بها، لأنه يريد أن يخضعها لأحلامه وتطلعاته وتصوراته، ويبني عالماً جديداً على أنقاض عالم يريد أن يدمره، فالمبدع في جوهره ثوري متطرّف الحلم، وليس أقسى على نفسه من أن تحكم عليه بالموت والإهمال.

رواية "إسماعيل كاداريه" شهادة حيّة لتجربة خاضها، وهي تشير إلى أن من حق المبدع أن يحلم ويفكر ويُبدي رأيه في عالمه، وأن رغبته

العارمة تلك لا يُمكن تصفيتها بقرار. وإننا نرتكب أكبر غلط حين نريد أن نفرض على المبدع قيوداً تحدّ من إبداعه وإنسانيته، والثورة الواعية هي التي تحترم إنسانية الإنسان، وتستفيد من كل عطاء، لأن الحياة أقوى من أي فكر يوجهها، فهي في مسيرتها تتجاوز كل تيار، وتفرض منطقها أخيراً مستفيدة من كل قديم أو جديد لبناء مستقبل الإنسانية المنشود.

(أيها العظيم.. كن رحيماً بالشاعر) بهذا البيت يلخص الكاتب "إسماعيل كاداريه" مغزى الرواية، مثلما يُبرز خطر إهمال الخالدين بمقطع من شعر "هوميروس" إذ تغضب الشمس على "زيوس" إنها تحقد على الحاكم، فتنذره بعقاب قاسٍ إذ تقول له: (سأنزل إلى الجحيم، ولن أتوهج إلا من أجل الشمس) هذا هو وعيد الشمس المرعب للحاكم.. (والشمس هي الشاعر) فلا تدعوا شعراءنا يغنون للعدم بل للحياة، ولا تتنكروا لهم بعد عطاء طويل.

* * *

الإبداعات المترجمة إلى العربية

للكاتب الألباني : إسماعيل كاداريه

العنـــــوان	المترجم	منشـورات
١ - حصان طروادة يلقي حتفه	ع. أرناؤوط	وزارة الثقافة السورية
٢ - جنرال الجيش الميت	ع. أرناؤوط	وزارة الثقافة السورية
٣ - العرس	ع. أرناؤوط	الهيئة المصرية العامة
٤ - الملف H	ع. أرناؤوط	وزارة الثقافة السورية
٥ - الحصن	ع. أرناؤوط	وزارة الثقافة السورية
٦ - لجنة الاحتفال	ع. أرناؤوط	وزارة الثقافة السورية
٧ - قصة مدينة الحجر	د. عفيف دمشقية	دار الآداب - لبنان
٨ - قصر الأحلام	حياة عطية الحويك	دار الآداب - لبنان
٩ - مِنْ أعاد دورنتين ؟؟	أنطوان أبو زيد	دار الآداب - لبنان
١٠ - الجسر	د. عفيف دمشقية	دار الآداب - لبنان
١١ - الشاعر والطاغية	معن عاقل	دار الآداب - لبنان
١٢ - الوحش	ـــــ	ـــــ

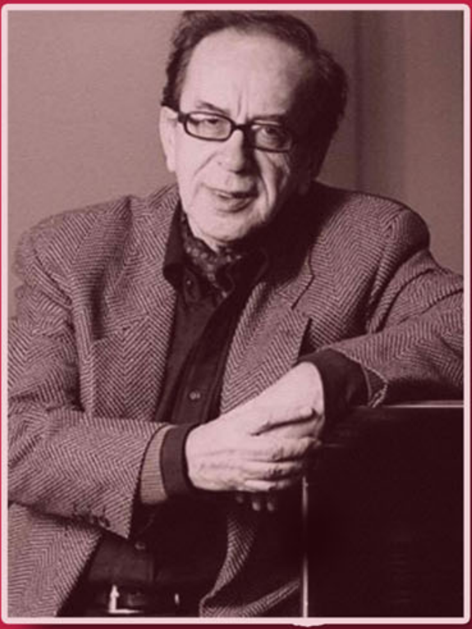
n

الصفحة

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠١١م
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

Ismail Kadaré



الكاتب الألباني المعاصر «إسماعيل كاداريه **Ismail Kadare** أديب إنساني، تجاوز أدبه الطابع المحلي والقومي المتخصص لوطنه إلى آفاق أرحب، يجد فيه المثقف جوانب من حياته وحياة بلده «ألبانيا». فالمشكلات المتعلقة بالتحرير الوطني التي طرحها تشبه التحرير الوطني في العالم، وأن نضال الجماهير طلباً للحرية هو في جوهره واحد..

فالكاتب «إسماعيل كاداريه» هو أبرع مَنْ رسم مأساة شعبه الألباني في مواجهة الاستبداد والاستعمار.. بابتسامة تفطر مرارة، وتستدرّ الدمع من ثنايا التهكم، وهو قادر على أن يُقيم مفارقات عجيبة لا تخطر في البال بين وجهي الحياة الإنسانية المتقابلين: الألم والأمل.. معتمداً جدلية الأضداد التي يجمعها ببراعة في موقف واحد..

الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة

www.syrbook.gov.sy
مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١م

سعر النسخة ١١٠ ل.س أو ما يعادلها